



# ولي النعم

يقلم  
محمد عرموش

# ولبي النعم

رواية تاريخية

بقلم

محمد عرموش

## مظهر باشا يُثني علي عصر أفندينا ولي النعم :

في إحدى ليالي صيف سنة ١٨٧٩ وداخل قاعة من القاعات الأنيقة ذات الأثاث الأوروبي الفاخر المريح جلس محمد مظهر باشا جلسته الأسبوعية المعتادة مع محمود بك حسن بمنزله الفرنسي الطراز الكائن بالقاهرة الخديوية التي أمر أفندينا ولي النعم اسماعيل باشا بإقامتها لتحاكي مدينة باريس التي أقام فيها في شبابه وعشقها وحلم ببناء القاهرة علي طرازها إذا أصبح حاكماً لمصر مهما كلفه ذلك وقد كان ما أراد وتحول حلم ولي النعم إلي حقيقة وكان مظهر باشا قد وعد محمود بك بالحديث معه عن ما يخفي عليه من أسرار الأسرة العلوية وتاريخها وتحليل مواقفها المختلفة ومناقشة الغامض من أمورها

قال محمد مظهر باشا لجليسه وصديقه الشاب محمود بك حسن -الذي لا تعجبه سلوكيات أفندينا إسماعيل باشا خديوي مصر- :

- لا تُتكر يا محمود بك أن عصر أفندينا اسماعيل باشا ولي النعم عصر تقدم ونهضة ، إذ نال أفندينا من الباب العالي أقصى ما يمكن من الحقوق والمزايا توصلأ بمصر إلي الاستقلال التام ، وأكمل فتح السودان ومد حدود الدولة المصرية إلي منابع النيل وشواطئ المحيط الهندي ، أي إلي تخومها الطبيعية
- أعرف ذلك يا باشا تمام المعرفة ولعله توسع بالدولة جنوباً خوفاً من التوسع شرقاً وشمالاً حتي لا يصطدم بما اصطدم به جده العظيم محمد علي باشا عندما تحالفت الدول مع الباب العالي ضده وأجبرته علي تخفيض عدد جيشه والانكماش داخل حدود مصر
- لا أعتقد أن اعتباره بالتاريخ يعيبه ، بالعكس إن هذا من علامات الحكمة ، وإن ما يحاول الوصول إليه من حدود لدولته أراه عملاً عظيماً مجيداً ، كما أنه عني بتنظيم الجيش وترقية التعليم الحربي وإنهاض البحرية المصرية وإقامة أعمال العمران في مختلف النواحي بعد أن توقفت في عصر عباس باشا ثم استمرت في عهد سعيد باشا ولكنها لم تصل إلي ما وصلت إليه في عهد أفندينا ولي النعم
- لا أنكر شيئاً مما تقول ولكن كل هذا يأتي علي حساب الفلاح المسكين ويتم بالسُخرة كما يتم تمويل كل هذه الأعمال بالديون والضرائب ، وبمناسبة الحديث عن عباس باشا فاسمح لي يا معالي الباشا أن أشير إلي أن عصره كان عصر رفاهية للفلاح المصري فضحك مظهر باشا وقال :
- هذا صحيح ، فحيث لا توجد مشروعات لا توجد سُخرة ولا ضرائب وحيث لا توجد حروب لا يوجد تجنيد فتأمل معي موقف الفلاح في عصر بلا سُخرة ولا ضرائب ولا تجنيد ، ألا يشعر بالراحة بعد كل هذا ؟

- أعرف أن كل هذا لا يعجبك يا باشا ، ولكن هل لابد أن يتم سحق الفلاحين مادياً وبدنياً بالضرائب الفادحة والسخرة المهينة كي تتحقق النهضة المنشودة لأي دولة ؟ ألا يمكن تحقيق أهداف الدولة مع المحافظة علي كرامة الإنسان ؟

- لابد يا محمود بك من معاناة الشعوب لتأسيس الحضارات العظيمة ، ومع ذلك فأنا متفق معك علي أن عصر عباس باشا ابن طوسون باشا كان عصراً تمتع فيه الفلاح المصري بالأمان والراحة والحياة الكريمة إلي حد كبير بل سأخبرك بمواقف عن ذلك العصر ربما لا تعرفها ، فأنت شغوف بمعرفة التاريخ

### علاقة مظهر باشا بمحمود بك حسن :

كان مظهر باشا علي الرغم من كونه من طبقة كبار الوجهاء في مصر وممن يتولون أعلى مناصب الدولة ومن المقربين لأفندينا إسماعيل باشا ونخبته الحاكمه ، يتسع صدره لما يقوله محمود بك الذي يمت له بصلة قرابة ولكن ليست صلة القرابة هي السبب في ذلك ، بل كان مظهر باشا من المعجبين بآراء وحماسة الشباب وكان يتعرف من خلال محمود بك علي نبض الشارع المصري وهمومه ومشاكله ، لأن محمود بك كان من أكثر الناس إماماً واهتماماً بعامة الشعب المصري من عمال وفلاحين وكان يتعاطف معهم ويرفع مشاكلهم إلي أولي الأمر في الدولة ، ومحمود بك أحد أبطال هذه القصة يتسم بصفات عديدة أهمها الشجاعة في إبداء الرأي ، كما أنه كان واسع الإطلاع ويحرص علي قراءة العديد من الكتب والمراجع وخاصة التي تتعلق بتاريخ مصر وشعبها ، فقرأ كتب كبار المؤرخين من أمثال المقرئزي وابن تغري بردي وابن الأثير وابن إياس الحنفي وابن أبي السرور البكري والجبرتي وكذلك اطلع علي ما كتبه رفاة الطهطاوي وكلوت بك واطلع علي بعض الكتب الفرنسية حيث كان يجيد اللغتين الفرنسية والإنجليزية ويدرس التركية ، وبالطبع لم تكن كل آراءه الجريئة تصلح لأن يقولها لمظهر باشا فقد كان محمود بك حريص علي عدم إغضاب الباشا رغم سعة صدره ، وكان محمود بك قد شرع في تسجيل وتدوين ما يراه من وجهات نظر في ملف خاص به حتي لا يزعج أحد بأفكاره التي تسبح ضد التيار

ومما كان يراه محمود بك أن محمد علي باشا كان يستفيد من الخبرات الأجنبية لتأسيس مصر الحديثة وتحقيق مشروعه الكبير سواء بحضور هذه الخبرات إلي مصر كسليمان باشا الفرنسي وكلوت بك علي سبيل المثال أو بإرسال البعثات إلي أوروبا ، وكان يتابع بنفسه هذه البعثات والإرساليات ، فكان يرسل إليهم الرسائل التي تحفزهم علي اكتساب العلوم ، وقد قام محمود بك بتسجيل بعض ما اطلع عليه في الكتب من هذه الرسائل في الملف الخاص به

وقد دون محمود بك رأيه في عصر محمد علي وما تلاه من عصور أولاده وأحفاده فكان يري أنه عندما تولي أولاد محمد علي باشا حكم مصر لم يكونوا علي نفس مستواه ، فبدلاً من أن يستغلوا الأوروبيين في تحقيق نهضة المجتمع المصري ، حدث العكس تماماً أي استغلهم الأوروبيون في تحقيق

مصالحهم والتي انتهت باستفحال الديون في عهد اسماعيل ، وقد دار هذا الحوار في نهاية عصر اسماعيل تقريباً بعد أن تدهورت الأحوال الاقتصادية للبلاد وتزايد النفوذ الأوروبي الذي تغلغل في أنحاء الديار المصرية وبات يشكل خطراً علي روحها وشخصيتها وأخلاقها واستقلالها الوطني ، كان حكام مصر من سلالة محمد علي قد فتحوا أبواب البلاد علي مصاريحها أمام الأجانب ومنحهم امتيازات وحصانات جعلتهم بمنأى عن المساءلة إذا ارتكبوا أخط الجرائم ولم يكن هؤلاء الأجانب في مستوي الطبيب الشهير كلوت بك أو القائد العسكري الكولونيل سيف وإنما كان معظمهم من حثالات البشر المكدرين في الموانئ الأوروبية من الأفاقين والمرابين وتجار الأعراض فلما تسامعوا عن الخير الوفير في مصر المحروسة شدوا إليها الرجال طمعاً في الثراء الرخيص وامتهنوا أحقر المهن وانتشروا في خدمة الحانات والخمارات وبيوت الدعارة فلما كثرت النقود في أيديهم وظفوها في الربا واستطاعوا تملك الأراضي الشاسعة والعقارات الثمينة

وكي نقترّب أكثر من شخصية محمود بك وأسلوب تفكيره وآراءه ، يمكننا أن نذكر بعض مما كتبه عن أولاد محمد علي باشا كي نفهم طبيعة الحوار الذي يدور بينه وبين مظهر باشا فقد كتب محمود بك ما يلي :

( ترك - محمد علي باشا - وراءه حكماً دون المسؤولية متعاضمين ، رأوا أن محمد علي أضاع حياته في ما لا يجدي وقضي العمر في ما لا ينفع وأن الحاكم الفذ هو الذي يستمتع بالسلطة ويهنأ بالسلطان ومر سعيد وعباس ومصر في حالة أكثر انحطاطاً مما كانت عليه أيام المماليك فأغلقت المصانع أبوابها وتحول الجيش إلي أداة للزينة أيام التشريفة ووقت خروج المحمل وفي تشييع جنازات العظماء

أما عندما تولي الخديوي اسماعيل ولي النعم حكم مصر وهو رجل طموح ولكنه في الوقت نفسه كان يحسب حساباته بدقة ولقد رأي أن محمد علي باشا تعرض للهلاك عندما خرج يتحدى الغرب ولذلك قرر ولي النعم أن يهادن الغرب - وما دام الغرب قوياً فلا بد من أن يكون السبب هو نمط الحياة التي يحيها الغرب فقرر أن يتحول بمصر إلي الحضارة الغربية وهنا أخطأ ولي النعم في الحساب لأنه لم يدرك أن الحضارة ليست عملية تجميل فحسب - ولذلك سنراه يغرق في الديون حتي أذنيه ليجعل من القاهرة قطعة من أوروبا ولقد نجح ولي النعم في ذلك بالفعل ، شق الشوارع والميادين وبيث النافورات والتمائيل وأقام المتاحف والمعارض ومد الجسور علي النيل وشيد القصور الملكية علي أرقى هندسة العصر وافتتح داراً للأوبرا وداراً للتمثيل وألف مجلساً للشورى وجعل من اللغة الفرنسية لغة رسمية للصالونات والنادي في عاصمة مصر، ولكن بصره لم يمتد إلي أبعد من القاهرة وعينه لم تلحظ وجود فلاحين يعيشون في الريف عيشة أكثر تعاسة من عيشة فقراء العاصمة ، فلم يكن الريف في نظره إلا مخزناً للطعام ، ومستودعاً للبشر المستعدين دائماً للخدمة والصبر !!



وبعد أن اطلعنا علي بعض ما كتبه محمود بك ، نعود لحديثه مع مظهر باشا حيث شرع مظهر باشا في الكلام عن عباس الأول فقال محمود بك -  
كلي آذان صاغية

### عباس الأول ورفاهية الفلاح المصري :

وأخرج محمود بك من جيبه بعض الأوراق وقلم وبدأ يكتب ما يقوله مظهر باشا من معلومات قد تكون جديدة بالنسبة له  
قال مظهر باشا :

- كما تعرف يا محمود بك كانت فترة حكم عباس باشا الأول من سنة ١٨٤٨ إلى سنة ١٨٥٤ وقد ولي عباس حلمي باشا الحكم بعد وفاة عمه إبراهيم باشا وفي حياة جده محمد علي باشا إذ كان أكبر أفراد الأسرة العلوية سناً وبالتالي أحقهم بولاية الحكم بعد إبراهيم باشا ، وهو ابن أحمد طوسون ابن محمد علي باشا

- لقد قرأت أن عباس باشا قد وُلِدَ سنة ١٨١٣ أثناء وجود أبيه في حملة الحجاز  
هذا صحيح ، وقد كان جده يهتم به جداً وقام بتعيينه في عدة وظائف مهمة في الدولة حتي أنه أصبح مديراً للديوان الخديوي عندما سافر جده إلي السودان سنة ١٨٣٨ قائلاً له : ( ستتولي أمور الديوان في غيابي لما عهدته فيك من النجابة والإستعداد والكفاءة) ، كما شارك عباس باشا عمه إبراهيم باشا في الحرب السورية

- فهل كان عباس باشا هو الوحيد من أبناء وأحفاد محمد علي الذي لم يتلق تعليماً حديثاً ولم يسافر إلي أي بعثة خارجية ؟

- نعم ، بل إنه لم يتعلم أي لغة أوروبية طيلة حياته . ولم يرث عن جده مواهبه وعبقريته ولم يشبه عمه إبراهيم في عظمته ، وكان محمد علي باشا قد توفي في ٢ أغسطس ١٨٤٩ بسراري رأس التين وتم نقل جثمانه إلي القاهرة ودُفِنَ بمسجده في القلعة ، وكان في استقبال جثمانه جميع أفراد الأسرة الباقين علي قيد الحياة ولم يتخلف سوي شخص واحد فقط

- عباس باشا ؟

- نعم عباس باشا لم يحضر الجنازة رغم أنه كان الحفيد المدلل لجده ، وقد أغضب ذلك باقي أفراد الأسرة العلوية وجعلهم يشعرون بالقلق من سلوكيات الوالي الجديد

- وخلال الفترة التي حكم فيها عباس باشا الأول والتي استمرت خمس سنوات ونصف غدا عباس غريب الأطوار طبقاً لما قرأت عن تلك الفترة أليس كذلك ؟

- بلي يا محمود بك بل وكان سيئ الظن بالناس ولهذا كان كثيراً ما يأوي إلي العزلة ويحتجب بين جدران قصوره التي كان يتخير لبنائها الجهات الموغلة في الصحراء أو البعيدة عن العمران ومن هذه القصور

البعيدة عن العمران القصر الضخم الذي شيده في صحراء الريدانية التي سميت منذ ذلك الحين باسم  
العباسية نسبة إليه

- إنني أطمع يا باشا في أن تحدثني عن وضع الفلاح في عهد عباس باشا
- في عهد عباس أصبح الفلاح آمناً في حقله من اللصوص
- وكيف ذلك ؟
- ذلك أن عباس قد عني باستتباب الأمن فضرب علي أيدي الأشقياء وقطاع الطرق وطاردهم وعاملهم بقسوة فخشوا بأسه وانقطع دابرههم وأمن الناس شرورهم ، كما أصبح الفلاح آمناً من تصرفات رجال الجندية وأعمال السخرة وذلك لقلّة عدد الجيش ولعدم وجود أشغال عامة كحفر الترغ وبناء القناطر ، وترتب علي قلّة المصروفات بسبب هذه الخطة التي اتبعها عباس أن خفت الضرائب ولم يفرض عباس أي ضرائب جديدة علي الفلاحين
- بالفعل يا معالي الباشا ، فمما قرأت في ذلك ما ذكره نوبار باشا في مذكراته أن ناظر المالية اقترح عليه فرض ضريبة جديدة وقد سأله الوالي عباس باشا :
- هل ميزانيتنا متوازنة ؟
- نعم يا أفندينا ، الميزانية متوازنة بل وهناك فائض في الإيراد
- إذن في هذه الحالة ما ضرورة فرض عبء جديد إنها جريمة وخطيئة ، حذار من الآن لا تطرح أمامي مثل هذه الاقتراحات
- وعلق مظهر باشا علي ما قاله محمود بك قائلاً :
- الحقيقة أن في عهد عباس باشا تم إلغاء نظام الاحتكار ، فعم الرخاء واغتبط الفلاح بثمرة كده وعمله ، ففي سنة ١٨٤٩ أصدر عباس قراراً بإلغاء احتكار شراء الكتان من الفلاحين وقد جاء في هذا القرار (طلباً لرفاهية الأهالي وفائدتهم كان محصول الكتان بمديرية المنوفية يورد للأشوان الأميرية بسعره المعلوم ولكن ظهر بعد البحث والتنقيب أن هذا الصنف إذا لم يورد في الأشوان ويباع بيد أصحابه يكون أفيد وأولي لراحتهم ولرفاهية الرعية ولذلك قرر المجلس المنعقد يوم الأربعاء ٢٦ ذي الحجة ١٢٦٤ هـ في القلعة أن يرخص للأهالي في بيع محصولهم كما يريدون وقد وافق لدينا اتباع ذلك)
- هذا يؤكد ما قلته فعباس باشا كان يهتم برفاهية وفائدة الأهالي ، ولعلها المرة الأولى يا باشا التي يجد فيها الفلاح نفسه قادراً علي بيع ما أنتجه من محاصيل لمن يريد وبالسعر الذي يرتضيه
- بالفعل يا محمود بك فقد أعقب إلغاء نظام الاحتكار في عهد عباس باشا أن انطلق التجار الشوام واليونانيون إلي أنحاء الريف المصري سعياً وراء شراء المحاصيل من الفلاحين ، ووجد الفلاحون المجال أمامهم واسعاً لبيع حاصلاتهم وتسلم الثمن نقداً
- أليس ذلك رائعاً ، أن يمسك الفلاح النقود بيده ويشعر بثمار تعبته ؟

- بالتأكيد ، بل ولم يكن الفلاح فقط من أمسك المال بيده ، فقد شهد عهد عباس تقدماً من ناحية الإدارة لم يعرفه عهد محمد علي باشا نفسه ، فقد انتظمت مراتب الموظفين بفضل سياسة صارمة في التدبير والتوفير وأصبح الموظفون يتقاضون مرتباتهم في موعدها بعد أن كانوا في أيام محمد علي باشا ينتظرون ١٥ أو ٢٠ شهراً لتسلم هذه المرتبات

### إنجازات عباس حلمي المعمارية والمناطق التي سُميت بأسمه :

فقال محمود بك :

- إن هناك إنجازات لا يمكن إنكارها حدثت في عصر عباس باشا مهما حاول البعض تشويه ذلك العصر منها مثلاً الأعمال المعمارية التي تم تشييدها في عهده أذكر منها مصنع الثلج بالأزبكية وسراي الخرنفش وسراي العتبة الخضراء وسراي العباسية التي عمر بها المنطقة التي سُميت باسمه العباسية وسراي الحلمية التي عمر بها أيضاً منطقة الحلمية نسبة إليه وسراي بنها والطريق إليها وإصلاح وتعبيد طريق السويس

- أعرف كل هذا بالطبع يا محمود بك وقد كان يتخير لبناء قصوره الجهات الموغلة في الصحراء أو البعيدة عن المناطق العامرة ففيما عدا سراي الخرنفش وسراي الحلمية اللتان كانتا في مدينة القاهرة القديمة تراه يشيد كثيراً من القصور خارج المدينة مثل قصر العباسية وقصر الدار البيضاء الواقع في الجبل علي طريق السويس ، وقصر بنها وغيرها ، وقد علل البعض سبب بناء هذه القصور الصحراوية بأنها لسهولة تقابله مع رؤساء القبائل العربية بعيداً عن أعين الرقباء ، بل والأهم بالنسبة لي المنشآت الدينية التي قام بها فقد قام باستكمال وإتمام جامع جده محمد علي باشا بالقلعة فأكمل أعمال النقوش والبلاط والفرش والإضاءة ، وأحضر تركيبة رخامية لتربة جده وجعل عليها مقصورة من النحاس الأصفر كتب عليها اسمه ووقف علي الجامع أوقاف تصرف عليه وعلي صيانته ، كما أعاد بناء وجدد العديد من المنشآت الدينية الأخرى كجامع فاطمة النبوية وجامع العشماوي وجامع السيدة سكيئة وجامع السيدة نفيسة وتكية النقشبندية وبعض الزوايا

- هل قام عباس باشا بالضغط علي الأثرياء لتعمير منطقة العباسية كما سمعت ؟

- لقد قام بتهديدهم بتوقيع عقوبات عليهم في حالة عدم الاستجابة لطلبه

- هذا أمر عجيب بالفعل

- إنني أذكر تفاصيل هذا الموقف العجيب حيث كان عباس باشا في ذلك الوقت عائداً من الأستانة في يناير من عام ١٨٤٩ وأصدر أوامره بتخطيط وتعمير صحراء الحصوة وهو الاسم الذي كان يُطلق علي منطقة الريدانية وقرر توزيع أراضيها علي كبار رجال الدولة لبناء القصور والمباني الحديثة بها ، ثم أصدر أمراً في مايو من نفس العام إلي رئيس مجلس الأحكام بسرعة تنفيذ هذا المشروع لتعمير مدينة القاهرة وحث رجال الدولة علي سرعة البناء ووضع عقوبات علي عدم وتأخر التنفيذ



- أعتقد يا باشا أن هذه المرة الأولى في التاريخ التي توضع عقوبات بسبب عدم البناء في منطقة معينة ، فالذي أعرفه أن العقوبات توضع عند البناء في منطقة ممنوع فيها البناء
- ألم أقل لك أنه كان غريب الأطوار ، بل إنني أطلب منك أن تتأمل ما ذكره في أوامره بذات الشأن حيث تواترت بين الناس وحفظناها للتندر منها في مجالسنا
- فماذا ذكر في هذه الأوامر لقد اشتقت لمعرفةها ؟
- واستعد محمود بك لكتابة ما سيقوله الباشا
- كان نص هذا الأمر هو : ( غني عن التفصيل والبيان أن أبنية موطننا العزيز مدينة القاهرة ليست علي الطراز الحديث وأن المساكن الموجودة فيها قديمة ومشرفة علي الخراب ، وحيث أن البلاد وما حواليتها والحمد لله في أمن وأمان وأمرؤها كلهم من أصحاب الثروة واليسار ، وحيث أن صحراء الحصوة ممتازة بجودة هوائها فيجب في هذه الحالة إقامة العمارة بها والإقامة فيها والاستفادة والتمتع من لطافتها وبهائها ، لهذا قد صدرت إرادتنا بعد عودتنا من الأستانة لوضع خطة وافية لهذه الصحراء وتقسيمها قطعاً أساسية وتوزيعها علي أمراء وذوات مصر ليبنى كل واحد منهم قصرًا فخماً لنفسه ، ولكن تحققنا أخيراً أن بدرأوي بك وواحد أو اثنين من الأرمن فقط باشروا إنشاء مساكن لهم وباقى الذوات الأمراء لمجرد طمعهم في أموالهم لهذه الدرجة أن أولادهم وورثتهم كيف يبعثون الأموال والخزائن المتروكة لهم ويتلفونها ، لينظروا إلي أولاد خورشيد باشا ومحمود بك ويتخذوهم عبرة لهم ، أليس إنشاء قصور فخمة لأنفسهم يتمتعون بها مدة حياتهم ويتركونها لأولادهم وورثتهم عند وفاتهم أفضل وأحسن من ترك أموالهم النقدية عرضة للضياع في ظرف ساعة واحدة ، وإنما هذا القعود والخمول ناشئ من عجز وقلة اقتدار هؤلاء الذوات والأمراء علي فهم الحقيقة ، فإذا اعتقدوا أن صرف الأموال علي قطعة من الجبل خسارة فإني أنا بنفسى جربت هواء الحصوة وشعرت بفائدته ، فذلك ولخدمة الصحة العمومية أردت عمارتها بإنشاء الأبنية والقصور بها ، وبناء عليه أصدرت أمري هذا عقب عودتي من الأستانة بهذا الخصوص وأقصي مرادي عمارة القطعة المذكورة . فإذا ذهب أحد إلي خلاف هذه الحقيقة والمعنى وصمم علي أن يبقي أمواله في صندوقه لأفكار واهية فجزأوه علي الله تعالى ، وحيث أني مصمم علي أمري وإرادتي السابقة فيجب علي المجلس المباشر أن يجدد مدة وميعاداً لإنشاء القصور اللازمة وتبليغ جميع الذوات والأمراء ، ومن يتأخر عن الامتثال بعد هذه الإرادة في المدة المعينة فعلي المجلس تعيين جزائه لأن ذوات مصر تعودوا أن يلاقوا المعاملة بالشدة وإنزال الجزاء عليهم ولا يدركون معنى انبهار الوجه ولطف المعاملة ، لذلك يجب نشر وإعلان هذا وعرض النتيجة علينا ، وقد حررنا هذا لكم لإجراء إجابته )
- ثم سكت مظهر باشا قليلاً وابتسم وهو يتابع ملامح وجه محمود بك وهو يستمع ويكتب باهتمام ما يقوله ، فقد كانت تعبيرات وجه محمود بك تنم عن الدهشة والعجب من أسلوب عباس باشا الذي تدرج

- من الرجاء إلي محاولة الإقناع إلي الترغيب إلي الطلب بحسم ثم انتهى بالتهديد والترهيب وتوقيع العقوبات ، بل ووصف الذوات والأمراء بأوصاف لا تليق
- وكان اندهاش محمود من حفظ مظهر باشا لنص الإرادة أكثر من اندهاشه من النص نفسه ، ثم قال مظهر باشا والابتسامة لم تفارق وجهه
- حسناً ، ما ذكرته لك كان مجرد نموذج واحد من أوامر عباس باشا ، فما رأيك ؟
- إن أكثر ما لفت نظري هو قوله (ذوات مصر تعودوا أن يُلاقوا المعاملة بالشدّة وإنزال الجزاء عليهم ولا يدركون معنى انبهار الوجه ولطف المعاملة)
- لقد غضب بالفعل الكثير منهم ولكن لم يسعهم إلا الامتثال للأمر ، وعلي أي حال أنشأ عباس باشا بهذه المنطقة قصراً وأربعة قشلاقات للجيش ومدرسة لتعليم الضباط ، فأنشأ الأمراء منازل لهم بتلك المنطقة ، وأصدر إرادة في يناير ١٨٥١ بتسمية المنطقة بالعباسية
- في تقديري يا مظهر باشا أن أهم من كل هذا هو مد خطوط السكك الحديدية لأول مرة في مصر فالجميع يعلم أنه في عام ١٨٥٢ شرع عباس باشا في مد السكة الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة وقد نجح في ذلك إلي حد كبير لولا مشاكل الجسور علي النيل لعبور القطارات وقد تم استبدالها بمعديات وطوافات خاصة قد ساهمت في حل المشكلة مؤقتاً
- أنا لا أنكر إنجازات عباس باشا ولكن حذره من الغرب كان مبالغ فيه جداً فيما أعتقد ، وليس من السهل في رأيي أن يتحقق النهوض بدون مساعدة الغرب
- في تقديري الشخصي أري أن عباس باشا قد اعتقد أن جده محمد علي باشا قد أفسح المجال للنفوذ الأوروبي في مصر ولذا فقد مضى في سياسة الحذر من الغرب
- سياسة الحذر من الغرب يا محمود بك ليس معناها أن تعمل علي هدم النفوذ الأوربي في مصر تماماً فتحولهم إلي أعداء لك ، فلن تتمكن من الاستفادة من خبراتهم أبداً
- في تقديري يا دولة الباشا أن هناك فرق كبير بين التحديث والتغريب ، فليس شرطاً كي أقوم بتحديث البلاد أن ألتزم بحياة الغرب وعاداتهم فكل مجتمع وشعب عاداته وتقاليده التي قد لا تناسب شعوب أخرى ، وأعتقد أن محمد علي باشا قد قام بالتحديث بكل ما يملكه من إرادة وقوة عزيمة ، أما أفندينا ولي النعم فيعمل علي تغريب المجتمع بشكل غير مسبوق ونشر عادات الغرب في المجتمع وعدم الاهتمام بكل ما هو مصري صميم من عادات وتقاليده ولغة ومفاهيم
- فهل تعتقد يا محمود بك أن عباس باشا قد قام بتحديث المجتمع ؟
- أفهم مغزي سؤال سعادتك ، وفي الحقيقة إن عباس باشا لم يقم لا بالتحديث ولا بالتغريب ولكن في تقديري أنه بطبيعة الحال شهدت أحوال حكم عباس باشا إغلاق عدد كبير من المصانع والمدارس والمشروعات أنشأت في عهد محمد علي باشا ولم يكن ذلك إلا نتيجة منطقية لتقلص عدد الجيش

وانهيار مشروع محمد علي باشا بعد تحالف الدول ضده ، أي أن انهيار المشروعات لم يكن إلا استمراراً لبدء انهيارها في عهد محمد علي باشا ذاته إذ أن مبرر وجودها هو خدمة جيش ضخم لم يعد له وجود وتم انكماشه داخل مصر وبالتالي لا يمكن تحميل عباس باشا وحده وزر انهيار امبراطورية جده علي يد الغرب الذا كرهه عباس بشدة لكل هذه الأسباب

- أنا أتفق معك أنه ليس في منشآت محمد علي باشا ما نال عنايته مثل الجيش المصري ، ويكفي دليلاً علي مبلغ تلك العناية أن منشآته الأخرى متفرعة عنه والفكرة في تأسيسها أو استحداثها إنما هي استكمال حاجات الجيش فهو الأصل وهي التبع فتقرير محمد علي باشا إنشاء مدرسة الطب مثلاً يرجع في الأصل إلي تخريج الأطباء الذين يحتاج إليهم الجيش وكذلك دور الصناعة ومصانع الغزل والنسيج كان غرضه الأول منها توفير حاجات الجيش والجنود من السلاح والذخيرة والملابس

- هذا صحيح ، ومن هنا يتضح أن المدارس والبعثات العلمية إلي الخارج وبناء المصانع والاهتمام بالنواحي الاقتصادية بشكل عام كان بسبب الجيش فهو الدافع وراء معظم هذه الإنجازات إن لم يكن كلها فإذا تلاشي هذا الدافع أو تقلص لأي سبب ستلاشي تلك المشروعات أو تتقلص أيضاً

- ولكن كل هذا ليس مبرر لمعاداة الغرب المتقدم

- أري أن عباس باشا كان يعتقد أنه إذا ما تحتم عليه الخضوع لأحد فليكن للخليفة العثماني وليس للأوروبيين وكان يري أن النضال بين السلطان والوالي لن يفيد سوي الأوروبيين ولن يؤدي إلا إلي الانهيار التام للإمبراطورية العثمانية بما فيها مصر

- لقد كان بالفعل شديد الولاء للسلطان ، فأذكر أنه عندما نشبت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا سنة ١٨٥٣ طلب السلطان عبد المجيد من عباس أن يمدد بالجيش والأسطول فلبى عباس طلبه ، وقد أبلت الجنود بلاء حسنا في هذه الحرب التي استمرت إلي عهد سعيد باشا وقد استطاع الجيش أن يكسر هجمات الروس في سنة ١٨٥٤

- علي أي حال يا مظهر باشا ، أري أنه علي الرغم من السلبات التي شهدتها عصر عباس باشا الأول من إهمال للتعليم وإغلاق للمصانع وانحطاط الجيش والبحرية فإن عصره قد تميز بعدم التدخل الأجنبي في البلاد ، وعدم اللجوء إلي الاستدانة ، ولم يترك أي دين علي حكومة البلاد ، ولم ينقل خزانة البلاد بالديون الأجنبية التي كبلها خلفاؤه من بعده وكان يجتهد دائماً في سد عجز الميزانية دون أن يلجأ إلي القروض

- وما أدراك يا محمود بك لعله اقترض وأنت لا تعرف فقد زعم البعض أنه اقترض ، بل وقد بدد أموال الدولة في بناء القصور في الصحراء وأرسل الكثير من الهدايا إلي السلطان وحاشيته وسعي لدي السلطان ليكون ابنه إلهامي خليفته علي عرش مصر

- علي أي حال كما عرفت ، قد سعي من قبله إبراهيم باشا ليتولي أحمد باشا رأفت أكبر أولاده العرش من بعده ولا يخفي علي سعادتكم أن أفندينا ولي النعم نفسه قد سعي لأن ينحصر العرش في أكبر أولاده وهذه كلها أمور غريزية أبوية لاحظت مثلها علي مر التاريخ وليس في هذه الأسرة فقط
- المهم بالنسبة لي أنه بانتهاء عصر عباس باشا يا محمود تمكن أفندينا ولي النعم وباقي أمراء الأسرة من العودة إلي مصر حيث كان قد غادرها العديد منهم إلي الأستانة ، وقد تولى سعيد باشا ابن محمد علي حكم مصر علي أي حال
- وبدأ بالسماح للنفوذ الأجنبي أن يعود إلي مصر مرة أخرى
- ومن أدراك أن عصر عباس باشا قد خلا من النفوذ الأجنبي والسكة الحديد التي تمت في عهده شاهده علي ذلك
- وكيف حدث ذلك يا باشا وما علاقة السكك الحديدية بالنفوذ الأجنبي ؟
- طالما أنك مُصر علي الدفاع عن عصر عباس باشا وتجادلني في ذلك وتتنظر إليه بعين الرضا بينما أنظر أنا إليه بعين السخط وكما قال الشاعر :
- وعينُ الرضا عن كل عيبٍ كليلَةٌ كما أن عين السخط تُبدي المساويا
- فدعني أقص عليك قصة السكة الحديد وأصل حكايتها
- السكة الحديد أنشأها عباس لأغراض سياسية :
- سأكون ممنون جداً يا سيدي
- واستعد محمود بك لكتابة ما سيقصه مظهر باشا
- قال مظهر باشا :
- كان مشروع السكة الحديد مشروعاً سياسياً أكثر منه مشروع لنقل المدينة الحديثة إلي مصر وتنمية وسائل النقل لزيادة النشاط التجاري كما قد تظن
- وكيف ذلك يا معالي الباشا ؟
- كان عباس باشا يواجه الباب العالي بمختلف الطرق للحفاظ علي الوضع الذي حصل عليه جده في تسوية سنة ١٨٤١م ، وكانت الدولة العثمانية تُريد أن تُرجع مصر مجرد ولاية عادية تبعث بوالٍ وقتما شاءت
- أي لا يلتزم الباب العالي بتعيين أكبر أمراء أسرة محمد علي باشا والياً علي مصر ، وهو المكسب الوحيد الذي حصل عليه بعد كل حروبه ؟
- أجل يا محمود بك ، فاضطر عباس إلي اللجوء إلي انجلترا لتسانده في أزمته ، وتدعم ولايته علي مصر ، فقد أعد هذا المشروع من قبل في عهد جده محمد علي باشا ، وأعد لينان بك المشروع علي خريطة الوجه البحري علي أن ينشأ خط ليربط بين الإسكندرية والقاهرة وآخر بين القاهرة والسويس

لتستعيض به شركة أورينتال الإنجليزية عن طريق رأس الرجاء الصالح لنقل المسافرين والبضائع  
والبريد من الهند إلى إنجلترا عبر مصر

- تقصد يا سيدي أن يتم ربط البحرين الأبيض والأحمر ربطاً برياً ؟
- أجل حيث يتم النقل بحراً خارج مصر وبالسكة الحديد داخل مصر ، وقد أحضرت الشركة بالفعل الأدوات اللازمة لمد خطوط السكة الحديد ، ولكن محمد علي باشا قام باستغلال هذه الأدوات في عمل سكة حديد بين محاجر طرا ونهر النيل لنقل الأحجار إلى القناطر الخيرية
- إن ما ذكرته يا سيدي يؤكد أن محمد علي باشا كان يستغل الغرب بحكمة ودهاء ، فقد تركهم يحضرون الأدوات واستعملها في ما يفيد مشاريعه داخل القطر
- لقد استبعد محمد علي باشا إقامة خط الشركة الإنجليزية خوفاً من انتشار النفوذ الإنجليزي في مصر ، أما عباس باشا فقد وافق علي إقامة الخط لصالح الشركة الإنجليزية وطبقاً لتخطيطها (الإسكندرية - القاهرة-السويس) وذلك حتي تسانده إنجلترا في أزمته مع الباب العالي ، حيث اتفق مع القنصل الإنجليزي في مصر علي أن تتدخل إنجلترا لدي الدولة العثمانية للمحافظة علي حقوقه في فرمانات وراثة حكم مصر كونه أكبر أمراء الأسرة سناً
- إذن ، قد كان تنفيذ مشروع السكة الحديد في عهد عباس باشا لأغراض سياسية
- بالتأكيد يا محمود بك فالأمر كما ذكرته لك ، وقد تم الانتهاء من مد الخط من الإسكندرية إلي كفر الزيات في عهد عباس باشا سنة ١٨٥٤ ثم تم استكماله إلي القاهرة في عهد سعيد باشا ، وكانت القطارات في ذلك الوقت تجتاز النيل عند كفر الزيات فوق معدية تنقل عرباتها ثلاثاً ثلاثاً
- مفهوم ، يا سيدي فهناك حادث الغرق الشهير لأحمد باشا رفعت أكبر أنجال إبراهيم باشا والذي أتاح لأفندينا ولي النعم المجال لارتقاء عرش مصر قبل أخيه الأكبر الغريق
- نعم إنه حادث شهير وقد روي البرنس حلیم أصغر أنجال محمد علي باشا قصة نجاته من الغرق في هذا الحادث حين سقطت به العربة من الكوبري حتي غاصت في النيل ، وكان يشاركه فيها الأمير أحمد رفعت ابن أخيه البطل الشهير إبراهيم باشا ، والوريث الشرعي للعرش بعد سعيد باشا ، ولكن رفعت لم يتمكن من الإفلات من العربة بسبب بدانته المفرطة ، فمات غريقاً
- وبذلك انتقلت وراثة العرش تلقائياً إلي أكبر الأمراء سناً : أفندينا ولي النعم
- لقد كانت مصلحة السكة الحديدية تترك للركاب حرية الاختيار بين النزول أثناء نقلها إتقاء للخطر أو العبور فيها ، ولكن الأميرين حلیم ورفعت وكانا في عربة واحدة أبيا النزول من العربة وفضلا البقاء فيها أثناء العبور فوق المعدية ، وبالعالم المكلفون بدفع العربة في دفعها بقوة ، إظهاراً لنشاطهم وشهامتهم وغيرتهم
- فتدحرجت العربة بالطبع وانزلت



- أجل ، وغرقت بمن فيها ، ولم يستطع الأمير رفعت الوثوب من نافذة العربة فمات غرقاً رحمه الله ، وأما حليم فكان خفيف الجسم ، فإنه وثب من النافذة إلي الماء واجتازه سباحة ، وهذا ملخص ما حدث
- هناك نقطة مهمة أود أن استوضحها بعيداً عن هذا الموضوع ، وهي تكوين الجيش المصري في عهد عباس باشا بعد أن ألغي التجنيد للمصريين
- لقد أعاد الجنود الأرنؤوط إلي مصر واستجلبهم من الباب العالي ، مما أضعف من معنويات ما تبقي من الجيش المصري ، ولكن ألا يكفي كل هذا الكلام عن عباس باشا ، ودعنا نتحدث عن سعيد باشا إذا أحببت

### من قتل عباس باشا ؟

- ولكن قبل أن نترك الحديث عن عباس باشا ونتحول إلي سعيد باشا ، كنت أتمني معرفة قاتل عباس باشا ؟ ، لأن هذا الأمر شديد الغموض بالنسبة لي ، هذا إذا كانت لديكم معلومات عن هذا الموضوع وإذا لم يكن لدي سعادتك مانع من الحديث عن هذا الأمر
- لماذا تصر يا محمود علي طرح أسئلة مثيرة للجدل وتتحدث عن موضوعات شائكة ؟
- أعتذر يا مظهر باشا ، ولكن حلم سعادتك وصبركم علي الوصول بالحديث إلي هذه النقطة جعلني أطمع في معرفة المزيد من المعلومات عن هذه الأسرة الفريدة
- إن عباس باشا يا محمود كان كالصوت النشاذ وسط سيمفونية رائعة تعزفها هذه الأسرة الفريدة ، ولم تكن تصرفاته مقبولة من بعض أمراء وأميرات الأسرة الذين غادروا مصر إلي الأستانة ولم يعودوا إلا بعد تولي سعيد باشا حكم مصر
- هل معني هذا أن أحدهم قد قرر وخطط للتخلص منه ؟
- هناك أقاويل كثيرة تردت حول مقتله ، وأنا متأكد أنك لن ترتاح وتتركني أرتاح إلا إذا ذكرت لك جميعاً
- فابتسم محمود بك وقال :
- سيكون ذلك من لطف سعادتك
- كان عصر عباس باشا كما قلنا صراع بينه وبين عائلته ، وبين الدولة العثمانية والنفوذ الأجنبي ، وقد غلب فيه النفوذ الإنجليزي علي النفوذ الفرنسي كما رأينا ، وسعي عباس إلي تولية ابنه إبراهيم إلهامي من بعده في الحكم بدلاً من عمه سعيد باشا ، كل هذا حدا بالبعض إلي ترجيح موته قتيلاً في ١٣ يوليو ١٨٥٤ بقصره في بنها ، وتم ترديد اسم عمته نازلي هانم بنت محمد علي باشا وأسماء أخرى وأنهم اشتركوا في هذه المؤامرة وأرسلوا مملوكين من الأستانة إلي مصر لقتله ، وإن كان الإنجليز يعتقدون أنه مات بسبب إحدى نوبات الصرع التي كانت تنتابه في سنواته الأخيرة
- وماذا عن رأي سعادتك في صحة أحد هذه الأقاويل ؟

- أعتقد والله أعلم ، أن احتمال قتله وارد من جانب عائلته التي أظهر عدائه لكل أفرادها تقريباً أو من جانب الدولة العثمانية التي كانت تريد استرداد سيادتها كاملة علي مصر دون أسرة محمد علي باشا
- سعيد باشا وعين الرأفة علي عرش مصر :
- علي أي حال لقد بدأ عصر محمد سعيد باشا ابن محمد علي باشا بعد وفاة ابن أخيه
- أجل وقد كان سعيد باشا مختلف تماماً عن ابن أخيه بل وعن باقي الأمراء
- وما أهم ما يميز شخصية سعيد باشا عن غيره من أمراء أسرة محمد علي باشا ؟
- اعتبر الكثيرون ولاية سعيد باشا بداية لبعثة النهضة الوطنية المصرية ، وقد أرجع البعض ميل سعيد باشا إلي بعث الروح الوطنية في المصريين إلي نشأته وتعليمه فنون البحرية وإصرار أبيه علي تدرجه في مناصبها ، مما رسخ المبادئ الديمقراطية في شخصيته ، فكان هناك في معظم أوامره إلي معاونيه الخاصة بتنظيم الأعمال الداخلية عبارة مأثورة هي (من حيث أن دوام النظر بعين الرأفة إلي الرعايا هو ملتزم إرادتنا - - - )
- لقد قرأت في بعض الكتب أن سعيد باشا ألقى خطبة في جمع من رجال دولته وأعيانها بقصر النيل في نوفمبر ١٨٥٩ أشاد فيها بتاريخ الشعب المصري واعتبر نفسه مصرياً
- هذا صحيح ، ولقد عمل علي تربية وتأهيل الشعب المصري حتي يكون أفراده جديرين بخدمة وطنهم عوضاً عن الأجانب كما سمح لهم بامتلاك الأراضي ونظم لهم ما يسمي باللائحة السعيدية ووضع نظام للمعاشات وأصبح هناك ضباط مصريين في الجيش لأول مرة وهو ما لم يحدث في عهد من سبقوه
- فهل كان سعيد كسلفه يحاول التخلص من نفوذ وسيطرة الباب العالي بالاستعانة بنفوذ الدول الأوروبية أو إحداها ؟ وما هو انطباعك الشخصي عن سعيد باشا بشكل عام ؟
- إذا كنت مُصر كعادتك يا محمود بك علي معرفة رأيي الشخصي فلا أخفي عليك أنني أري أن أهم الصفات البارزة في أخلاق سعيد باشا ، طيبة قلبه ، وسلامة قصده وكرمه ، وصراحته ، وميله للخير ، وتسامحه وحبه للعدل ، ولكنه إلي جانب ذلك ، كان ضعيف الإرادة كثير التردد ، لا يستقر علي رأي واحد
- ومن هنا جاءت تقلباته في الخطط والبرامج والأعمال ؟
- نعم ، والأخطر من كل هذا في تقديري ، هو انصياعه لآراء خلطائه من الأوروبيين وسرعة تأثره بما يسمعه ، ثم سرعة غضبه ، ورجوعه عن غضبه لأوهي الأسباب ، وكانت نقطة الضعف فيه إسرافه . والتجاءه إلي الإستدانة من البيوت المالية الأوروبية ، وحسن ظنه بالأوروبيين وشدة ركونه إليهم
- كان محمود بك يستمتع لما يقوله مظهر باشا وهو في قمة العجب ، ولكنه لم يجرؤ علي التعليق فالذي يقوله مظهر باشا ينطبق تماماً علي أفندينا ولي النعم اسماعيل باشا الذي له مكانة خاصة عند مظهر باشا ، ولاحظ مظهر باشا آثار الإندهاش علي وجهه جليسه فقال :

- أرى أنك مندهش من وصفي لسعيد باشا ، فهل قرأت عنه خلاف ذلك ؟
- لم أقرأ عنه فقط ولكنني عاصرت الفترة الأخيرة من عهده وتحديث مع الكثيرين ممن اقتربوا منه
- فما الذي تعرفه أنت عنه يا محمود بك مما قرأت وسمعت ؟

### سعيد باشا والمكرونه :

- الذي أعرفه عنه أنه كان في صباه يميل إلي البدانة وكان أبوه " محمد علي باشا " حريصاً علي تربية أبنائه علي الحياة العسكرية والنشأة الرياضية ، فكان يحتم علي الصبي " محمد سعيد " أن يسبح ويعود كل يوم مسافات طويلة ، ويأمر له بالقليل من الطعام الذي لا يسمن ولا يشبع ، وكان " ماثيو دليسبس " والد " فرديناند " صديقاً لمحمد علي ، يحبه من عهد وساطته عند الباب العالي في اختياره للأريكة المصرية ، وكان يأذن لأبنائه في زيارة القنصل لتوثيق غري المودة وإتقان اللغة الفرنسية ، فكان محمد سعيد يجد في دار القنصل شبعه من المكرونه التي كان مشغوفاً بأكلها
- فضحك مظهر باشا وقال :
- حقاً لقد كان معروف عن سعيد باشا أنه يحب المكرونه كطعام مفضل ، وكانت صحبته لفرديناند الصغير خير شفيح للمهندس الفرنسي فيما بعد لاستجابة رجائه "الخاص بحفر قناة السويس " بعد طول تردد فيه علي أيام أبيه
- ومما أعرفه أيضاً أن فرديناند دليسبس هذا كانت تربطه بالإمبراطورة " أوجيني " إمبراطورة فرنسا صلة قرابة ومودة ، فلولا المكرونه وهذه المصادقة التي ربطت بين دليسبس وبلاط فرنسا لما استطاع الرجل أن ينجح حيث أخفق غيره
- فابتسم الباشا وقال :
- إنها معلومات صحيحة إلي حد كبير وإن كان فيها بعض المبالغة ، خاصة فيما يتعلق بالمكرونه فلا يمكن أن تتحكم الأطعمة في القرارات المصيرية للدول ، وإن كان السبب الذي أعرفه هو مهارة المسيو فرديناند في الفروسية ولكن هذه قصة أخرى قد أقصها عليك لاحقاً ، أما الإمبراطورة أوجيني فلا أخفي عليك أن أفندينا ولي النعم اسماعيل باشا من أشد المعجبين بها
- الذي أعرفه ومتأكد منه أن إمبراطورة فرنسا تربطها بالمسيو فرديناند دليسبس روابط قوية وكانت لها اليد القوية التي تنفذه من ورطة بعد ورطة في بلاط باريس ولولاها لحبط العمل كله بعد الشروع فيه
- إن المسيو فرديناند دلسبس قد استخدم كل ما في جعبته من الوسائل لإقناع سعيد باشا بفوائد مشروع قناة السويس ، فجميع المحاولات لإقناع محمد علي باشا بحفر قناة السويس باءت بالفشل لشعور محمد علي باشا أن هذه القناة قد تجر إلي مصر أطماع الدول الكبرى ، ولم يتم إقرار المشروع إلا في عهد سعيد باشا

- هذا يؤكد رأيي في أن محمد علي باشا يختلف كل الاختلاف عن أولاده فكان بعيد النظر وشديد الحذر من تطلعات الأجانب ممن حوله ولم يشبهه في ذلك إلي حد ما إلا إبراهيم باشا وعباس باشا
- ولكن يا بك أنا مصر علي أنه لا يمكن مقارنة عصر عباس باشا بغيره من عصور ولاة هذه الأسرة وإذا كنت تعتقد أنه الوحيد الذي أنصف الفلاح فأنا أؤكد لك أن سعيد باشا كما ذكرت كان من أعدل ولاة هذه الأسرة
- أنا لا أعترض علي كلام سعادتك مطلقاً فكلها أمور نسبية
- كان محمود بك يحاول جاهداً عدم إغضاب مظهر باشا فقرر عدم الاستمرار في الجدل ، وبعد فترة صمت قصيرة ، تكلم مظهر باشا وكأنما راجع نفسه فقال :

#### غلطات سعيد باشا :

- مما يؤسف له أن هذا الوالي العادل الذي كان يحب الشعب حباً جماً ويعمل من الإصلاحات كل ما من شأنه جلب الرفاهية له ، لم يعن بتثقيفه وتنويره عناية أبيه فألغى عند توليه الحكم ديوان المدارس الذي كان يديره عبد الله فكري ، ولم تُفتح في عهده إلا مدرسة حربية ، وأخري بحرية ، وكانت المدارس في عهد عباس أربعاً
- كان محمود بك يستمع بتركيز شديد لكلام مظهر باشا ولا يقاطعه ، ويحاول جاهداً ألا تبدو علامات الدهشة علي وجهه ، رغم أن كلام الباشا عن سعيد يبدو فيه الكثير من التناقضات فكيف يحب الشعب المصري ويريده أن يتولي الأعمال والوظائف التي يقوم بها الأجانب وفي نفس الوقت لا يهتم بالتعليم وكان مظهر باشا يتحدث قليلاً ثم يسكت ثم يعود للحديث كما لو أنه حديث ذكريات حزين فكان مما قاله عن سعيد باشا :
- ويؤخذ عليه أيضاً أنه رحب بالأجانب وبالغ في إكرامهم فكانوا يطمعون في جانبه ، ويخدعونه كثيراً ويحصلون منه علي امتيازات لا تُراعى فيها مصلحة مصر ، وفي عهده بدأ القناصل يتدخلون بطريق مباشر أو غير مباشر في شئون مصر الداخلية ، وقد كان الأجانب منكمشين في عهد محمد علي باشا وعباس باشا ، ولكن سعيداً ارتكب غلظتين سياسيتين كبيرتين جرنا علي البلاد كل بلاء : القروض والقناة ، ذلك أنه وقع فيما لم يقع فيه أبوه ، وكانت إدارته المالية من أسوأ الإدارات ، فهو أول من استدان من البيوتات المالية الأجنبية
- فكم بلغت قيمة القروض في عهده ؟
- لقد اقترض ما يقرب من ثلاثة ملايين من الجنيهات . وكان دينه السائر يبلغ العشرة ، وقد استحكمت الأزمة المالية في أواخر حكمه فاضطر إلي بيع أثاث السراي وما حوته خزائن الحكومة من نفيس المتاع ، وصرف الجيش ، ومنح موظفي الحكومة الذين يتركونها أرضاً معاشاً لهم ولأولادهم
- فماذا كان سبب هذه الديون الكثيرة ؟

- لقد كانت ديونه علي نوعين : داخلية وخارجية ، وكان منشؤها في سعة كرم الوالي وتعاقدته من غير روية مع المتعهدين الأوروبيين وغيرهم الذين كانوا لا ينفكون يطالبونه بواسطة قناصلهم بتعويضات كبيرة عن غبن وهمي أصابهم في اتفاقات أبرموها مع الحكومة ، وكان سعيد متلافاً للمال . يُروي عنه أنه أنفق نيفاً وسبعة ملايين من الفرنكات في زخرفة حجرة له في أحد قصوره ، وقد أنفق المال الكثير علي جيشه فاستدان لمعامل ألمانيا وفرنسا حيث اشترى المدافع والملبوسات وآلات الحرب
- فما قصة فروسية المسيو دليسيبس وعلاقتها بامتياز قناة السويس ؟
- حدثتك أن المسيو فرديناند دليسيبس فشل في إقناع ولاية مصر قبل سعيد باشا بمنحه امتياز حفر قناة السويس ، وقد ينس من الأمر تماماً في عهد عباس باشا ، فلما مات عباس وتولي سعيد باشا الحكم استبشر خيراً بنجاح فكرته ، علي يد صديقه القديم
- صديق الصبا سعيد باشا ؟
- أجل ، فأرسل إليه يهنئه بارتقاء العرش ، ويبلغه عزمه علي الحضور ليقدم له فروض التهاني ، فأجابه سعيد باشا علي تهنئته ، واستدعاه إلي مصر ، فسرعان ما جاء الإسكندرية في نوفمبر سنة ١٨٥٤ ، وقابله الباشا بحفاوة كبيرة ، ثم اصطحبه في رحلة من رحلاته الحربية التي كان يسير فيها علي رأس جنده

#### دليسيبس يعرض مشروعه علي سعيد باشا :

- وأين كانت وجهة هذه الرحلة أو المسيرة ؟
- لقد سار معه من الإسكندرية إلي العاصمة عن طريق الصحراء الغربية ، وكان الباشا يقود في هذه الرحلة جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل
- وما الداعي لكل هذا ؟
- وما الداعي لقيام عباس باشا ببناء قصور في الصحراء ؟ إنها أسئلة لا معني لها ، ما يهمنا في هذه القصة أن المسيو دليسيبس قد اغتتم هذه الفرصة ليفاتح سعيد باشا في أمر مشروع قناة السويس ، وكان لمهارته في ركوب الخيل أثر في تمهيد السبيل لنجاح مسعاه ، ذلك أنه امتطي صهوة جواد أهداه له الباشا ، فوثب به يوماً علي حاجز من الأحجار ، علي مرأى من قادة الجند من حاشية سعيد باشا ، فأعجبوا به وبمهارته وفروسيته ، وفي مقدمة المعجبين به ذو الفقار باشا وزير المالية الذي كانت له منزلة كبيرة لدي سعيد باشا ، وفي اليوم التالي فاتح المسيو دليسيبس سعيد باشا في أمر المشروع ، وزين له أنه إذا وافق خلد ذكره واكتسب ثناء العالم بأسره ، بالرغم من أن سعيد باشا كان يُصرح بأنه لا يخالف وصايا أبيه محمد علي باشا في الإعراض عن فتح القناة ، فإنه ضعف أمام إغراء المسيو
- فمتي منحه امتياز حفر قناة السويس ؟



- لما بلغ سعيد باشا القاهرة أنزل المسيو ديليسبس ضيفاً عنده ، محفوفاً بالإكرام والرعاية . ولم تمض أيام معدودات حتى منحه بمقتضى العقد المؤرخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ امتياز تأسيس شركة لحفر قناة السويس واستثمارها لمدة ٩٩ سنة ابتداء من تاريخ فتح القناة للملاحة
- وهكذا نال المسيو ديليسبس بغيته التي كان يسعى لها منذ ثلاث وعشرين سنة سبحان الله
- وتم تشكيل لجنة لدراسة وبحث تفاصيل المشروع وكتابة شروط الامتياز لعرضها علي سعيد باشا ، ولما أتمت اللجنة مباحثها عرض المسيو ديليسبس النتائج علي سعيد باشا ، فأصدر له عقد الامتياز الثاني بتاريخ ٥ يناير سنة ١٨٥٦
- الذي أعرفه يا معالي الباشا أن شروط الامتياز كانت ظالمة للجانب المصري
- هذا صحيح للأسف يا محمود بك ، لذلك لا ينفك أفندينا ولي النعم اسماعيل باشا عن محاولة تخفيف هذه الشروط التي أقرها سلفه سعيد باشا ووافقت عليها حكومته ، وهي شروط فادحة لا ترضي بها حكومة رشيدة ساهرة علي مصالح البلاد
- وما هي أبرز هذه الشروط ؟
- منحت الحكومة الشركة امتياز إنشاء قناة السويس بالإضافة إلي إنشاء ترعة للمياه العذبة تستقي من النيل ، وتنازلت الحكومة للشركة مجاناً عن جميع الأراضي المملوكة لها والمطلوبة لإنشاء القناة والترعة وتوابعها ، وهي مساحات شاسعة علي طول القناة والترع المزمع إنشاؤها ، بعرض كيلومترين علي الجانبين
- تنازلت عنها الحكومة بلا مقابل ؟
- نعم للأسف الشديد ، بل ومنحت الشركة أيضاً طول مدة الامتياز الحق في أن تستخرج من المناجم والمحاجر الأميرية كل المواد اللازمة لأعمال المباني وصيانتها وملحقات المشروع دون دفع أي رسم أو ضريبة أو تعويض ، وتعفي الحكومة الشركة من الرسوم الجمركية ، علي جميع الآلات والمواد التي تستوردها من الخارج
- أعتقد أن سعيد باشا قد ترك لصديقه ديليسبس تحرير شروط الامتياز طبقاً لما يراه
- هذا صحيح فالعقد كما تري قد صيغ في أسلوب يجحف بحقوق مصر كل الإجحاف ، والأخطر من كل هذا أنه لا حق للحكومة في إقامة الحصون في منطقة المشروع ، وإنك لتري في هذه الشروط روح التساهل والإسراف التي تعاقدها بها سعيد باشا مع الشركة ، فإنه خولها مزايا جعلها تشارك الحكومة المصرية في حقوق ملكيتها العامة وسيادتها ، وهكذا جعل منها دولة داخل الدولة
- ولكن أين كان الباب العالي من كل هذا وماذا كان موقف انجلترا من المشروع ؟
- اشترط سعيد باشا لصحة الامتياز أن يوافق عليه السلطان ، علي أنه كان معتزماً بتنفيذه بصرف النظر عن هذا التصديق

- أعتقد أن ما نالته مصر من حقوق الاستقلال الداخلي طبقاً لمعاهدة لندن لا يجعل مثل هذا التصديق ضرورياً لصحة الامتياز ، ولكن ألم يقلق ديليسبس من احتمال عدم موافقة السلطان ؟
- لقد أعطي سعيد باشا لدليسبس العهود والمواثيق ألا ينظر إلي هذا التصديق إلا كمظهر شكلي ليس بذى بال ، ولكن دليسبس أراد زيادة الاطمئنان علي مشروعه ، فذهب إلي الآستانة يلتمس فرمان التصديق ، فوجد معارضة شديدة للمشروع من السفير البريطاني بإيعاز من اللورد بالمرستون وزير خارجية إنجلترا في ذلك الوقت
- من الطبيعي أن ترفض إنجلترا هذا المشروع لأنه سيفرض النفوذ الفرنسي في مصر وسيجعل الطريق إلي الهند تحت رحمة فرنسا عدوها اللدود
- لقد حاولت إنجلترا بالفعل إفشال المشروع من خلال إقناع الباب العالي بعدم جدواه ووصفته بأنه خيالي ولا يمكن تنفيذه علي أرض الواقع ، ولكن سعيد باشا بذل كل ما يملك من جهد ومال لمعاوضة صديقه ديليسبس وتنفيذ المشروع بأي ثمن
- فماذا فعل ؟
- لقد بذل له أولاً الأموال المتوفرة في خزانة الحكومة وقتئذ ليستعين بها علي العمل ، وحدث أن تغير الموقف الدولي بوقوع حرب بين فرنسا والنمسا في ربوع إيطاليا ثم حاولت بريطانيا خلع سعيد باشا بالاتفاق مع السلطان وتطورت الأمور وانتهت الحرب بعقد مصالحة فنفذت كلمة فرنسا في ميدان السياسة العامة وظل مشروع قناة السويس رهين بالضغط الإنجليزية تارة والفرنسية تارة وكاد أن يتوقف العمل به لولا تدخل نابليون الثالث إمبراطور فرنسا واستخدم نفوذه ووساطته لدي السلطان لدعم موقف سعيد باشا
- وهكذا كان للسياسة الفرنسية اليد الطولي في نجاح المشروع ، وبالتأكيد قد شعر سعيد باشا برعاية فرنسا له
- نعم ، فتحمس للمشروع وقام بمعاوضته بكل قواه ، وبلغ به تفانيه في تعضيده أن سخر الفلاحين ليعملوا في حفر القناة ، وكان يأمر بجلبهم من بلادهم وقراهم ، وبلغ عددهم ٢٥٠٠٠ عامل كانوا يقاسون الشدائد والأهوال في عمل لم تنتفع منه مصر بأية فائدة ، بل عاد عليها بالويل والخسران
- فأين وصل العمل في الحفر عند وفاة سعيد باشا ؟
- كانت القناة قد وصلت إلي بحيرة التمساح حيث جرت فيها مياه البحر الأبيض إذ أدركته الوفاة بعد ذلك بشهرين في ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ تاركاً لأفندينا ولي النعم اسماعيل باشا إتمام ما بدأه ، والوصول بالمشروع إلي نهايته
- إنها معلومات مفيدة جداً وضحت لي الكثير من الأمور عن مشروع قناة السويس وكيف بدأ العمل به في عهد سعيد باشا

- فهل تريد معرفة المزيد عن ما تم في عهد سعيد باشا ؟
- إن لم يكن لدي سعادتك مانع فأنا أتمنى معرفة رأيكم في إرسال قوة من الجيش المصري إلي المكسيك في عهد سعيد باشا فهو موقف في منتهي الغرابة
- وهل لك تحفظات علي هذا الموقف ؟
- بالتأكيد يا باشا إنه أعرب ما قرأت وسمعت به في التاريخ
- وما وجه اعتراضك علي ذلك ؟

### سعيد باشا يرسل قوة من الجيش إلي المكسيك :

- من الجائز يا معالي الباشا أن تجامل صديقك في أفراحه فترسل إليه بوكيه ورد أو بطاقة تهنئة ، ومن الواجب أن تجامله في أحزانه وأزماته بعبارات تتم عن المشاركة الوجدانية ، أما أن تجامله بإرسال الجيش ليحارب معه في بلاد بعيدة ، فهذا أعرب أنواع المجاملة التي سجلها تاريخ مصر الحديث ، عندما بعث الوالي سعيد باشا بكتيبة من الجيش المصري لتخوض حرباً مع المكسيك مجاملة لإمبراطور فرنسا نابليون الثالث وفاء لروابط الصداقة بينهما
- لقد كان نابليون الثالث يحلم بإقامة إمبراطورية فرنسية في العالم الجديد ، فانتهاز فرصة قيام ثورة في المكسيك ضد نظامها الجمهوري وعمل علي إذكاء نارها ، وحاول تحريض إنجلترا وأسبانيا لتدخل بحجة حماية الرعايا الأوروبيين ، فلم تأبه الدولتان لتحريضه ، فتحمل وحده مسئولية التدخل ، بعث بقوات فرنسية تعرضت لهزائم متوالية
- فلما تخرج موقفه لم يجد من ينقذه من ورطته سوي صديقه الحميم سعيد باشا
- نعم ، ولقد أبت شهامة سعيد باشا أن يعتذر لصديقه
- كان يكفي أن يخبره بأن من غير المنطقي أن يذهب الجيش المصري ليحارب في بلاد لا تربطها بمصر صداقة أو عداة من بعيد أو من قريب
- لقد خجل سعيد باشا من الإمبراطور فاستجاب للاعتبارات الشخصية وقام بتجهيز كتيبة قوامها ١٢٠٠ جندي وضابط تحت قيادة البكباشي السوداني خيرة الله محمد ، وأبحرت الكتيبة إلي المكسيك في عام ١٨٦٣ وخاضت المعارك التي فرضت عليها في شجاعة تُحسد عليها حتي أن القائد الفرنسي وصف أفرادها بأنهم أسود وليسوا جنوداً وبعد أربع سنوات من الحرب اليائسة كانت الكتيبة قد فقدت معظم أفرادها بمن فيهم قائدها ، ولم يبق منهم سوي ٣٠٠ جندي عادوا إلي باريس في صحبة الجيش الفرنسي المهزوم ، فاستعرضها الإمبراطور وأشاد بشجاعة أفرادها وخلع عليهم الأوسمة ، وبعد وصولهم إلي الإسكندرية استعرضهم أفندينا ولي النعم الخديوي اسماعيل باشا - بعد وفاة سعيد باشا - في قصر رأس التين وأمر بترقية بعض رجالها اعترافاً بشجاعتهم
- فهل كانت وفاة سعيد باشا وفاة طبيعية بسبب مرضه كما هو معروف أم أن هناك معلومات لا أعرفها ؟

## وفاة سعيد باشا نبأ سعيد لإسماعيل باشا :

- لقد عانى سعيد باشا في أواخر أيامه من مرض عضال وذهب إلي أوروبا للاستشفاء إلا أنه لم يجد العلاج اللازم هناك وعاد إلي البلاد في أواخر سنة ١٨٦٢
- فهل صارحه الأطباء في أوروبا بحقيقة مرضه وعجزهم عن علاجه ؟
- لما اشتدت وطأة المرض عليه نصحه أطباء أوروبا بالعودة إلي بلاده ليلفظ فيها أنفاسه الأخيرة ، واستجاب لنصيحة أطبائه ، وعاد إلي قصره بالإسكندرية ينتظر ملك الموت
- وأين كان يقيم أفندينا ولي النعم اسماعيل باشا في ذلك الوقت ؟
- لقد كان في القلعة بالقاهرة ، وقد زاعت بالطبع أخبار احتضار سعيد باشا في أنحاء البلاد
- نعم ، وبدأت الأنظار تنصرف عن الشمس الغاربة في مياه الإسكندرية ، وتتجه نحو قلعة القاهرة حيث يقيم الوالي المنتظر
- بالتأكيد ، بل وأخذت زرافات المنتفعين والوصوليين ومحترفي السلطة تتحرك نحو القلعة ، ترقب النجم الصاعد ، وتحجز لنفسها مكاناً في دولة ولي النعم ولأن لكرسي العرش بريقه في كل زمان و مكان كان ولي النعم إسماعيل باشا قد اختلطت مشاعره ما بين الحزن لدنو أجل عمه الحبيب إلا أنه لم يكن ليديري سعادته بأن اقتربه من كرسي العرش قد بات وشيكاً. وكما تعلم أن العادة قد جرت ان يُنعم الوالي الجديد فور وصوله لسدة الحكم بلقب بك الى من يأتي إليه بخبر إعتلائه العرش ، و إذا كان حامل هذا الخبر من البكوات فينعم عليه الوالي بلقب باشا."
- بالطبع إنها عادة معروفة
- لذلك فقد تبارى الموظفون المخولون بهذا الأمر فيما بينهم في سباق لتوصيل الخبر لإسماعيل باشا. فظل بسى بك مدير المخابرات التلغرافية في عمله ولم يغادره لمدة ٤٨ ساعة ، و لما غلبه النوم بعث في طلب أحد صغار الموظفين ليتولى الجلوس مكانه بجانب التلغراف لمتابعة الأخبار على أن يبعث لبسى بك فور وصول البرقية التي تحمل الخبر ووعده بمكافئة قدرها خمسمائة فرنك ! و لكن ما قيمة هذا المبلغ مقابل الحصول على اللقب ، فتظاهر الموظف بالطاعة إلا أنه كان يضرر في نفسه شيئاً آخر! وبالفعل في منتصف ليل ما بين السابع عشر والثامن عشر من شهر يناير لعام ١٨٦٣ وصل الخبر في هيئة برقية من الاسكندرية يفيد بانتقال سعيد باشا رحمه الله إلى جوار ربه. فطار الموظف بالخبر إلى القلعة طالباً الإذن بالدخول لمقابلة اسماعيل باشا شخصياً.
- أجل وقد قرأت وصف المؤرخ " الياس الأيوبي" المشهد فى السراى فور دخول الموظف حيث قال : "جثا الرجل أمام إسماعيل باشا، وسلمه الإشارة البرقية الواردة، فقرأها إسماعيل، وما إن اطلع على ما فيها، إلا ونهض والفرح منتشر على محياه، فوقعت الإشارة من يده، وشكر الله بصوت عالٍ على ما أنعم به عليه من رفعة إلى سدة مصر السنية، ثم ترحم على عمه سعيد باشا ترحماً طويلاً، فشاركه رجاله

المحيطون به في فرجه، وتصاعدت دعواتهم له بطول البقاء ودوام العز وأخذوا يهنتونه، ويهنئ بعضهم بعضاً." بعدها و كما جاء على لسان الأيوبي في كتابه: "نظر إسماعيل إلى الموظف الجاثي أمامه والذي كان قد التقط الإشارة البرقية حالما وقعت من يد مولاه، ووضعها في جيبه وتبسم وقال: انهض يا "بك" ، وبعد أن حباه نفحة من المال أذن له بالانصراف."والطريف أن الموظف عاد إلي مديره وأيقظه وحصل منه علي المكافئة وعندما توجه بسي بك المسكين ليبلغ أفندينا قيل له أنها أخبار قديمة ولم يتمكن من حتي معاينة الموظف الخبيث لأنهما أصبحا في نفس الرتبة

- حقاً إنك واسع الإطلاع يا بك حتي أنك تسألني عن أمور تعرف تفاصيلها ، فلماذا تستفسر عنها إذن ؟
- كل ما أعرفه من معلومات تاريخية لا يمكن أن تغيني عن سردكم الممتع للأحداث طبقاً لرؤيتكم الحكيمة لها كما أنني غير ملم بكل التفاصيل
- حسناً ، سأعتبر ما قلت إجابة كافية ، وسأستمر في الحديث كما وعدتك ، وها قد وصلنا لبداية عصر أفندينا ولي النعم وهو عصر نعيش فيه وليس تاريخاً يمكنك أن تجده في الكتب ، فماذا تريد أن تعرف عنه ؟
- في الحقيقة يا مظهر باشا عندي الكثير من الأسئلة التي أتمني طرحها ، فهناك الكثير من الأحداث التي قد تخفي علي مثلي ولا أعتقد أنها تخفي علي مثلك
- مثل ماذا ؟
- أريد أن أعرف كيف تشكلت النخبة الحاكمة الموجودة حالياً ، فكل زمان دولة ورجال ، فمن هم رجال أفندينا المقربون الذين هم كبار رجال الدولة ؟ ولست أقصد بسؤالي معرفة أسمائهم فهي معروفة ولكن كيف وصلوا إلي هذه المكانة وكيف وصل الحال إلي ما هو عليه الآن من تدهور إقتصادي وهل هم السبب في ذلك أم أفندينا نفسه ؟
- إنه سؤال يحتاج إلي وقت طويل للإجابة عليه وسأفعل إن شاء الله خلال الحديث بشكل عام عن أي موقف تستفسر عنه ، ولكن دعني أسمع منك أولاً كل ما تعرفه عن أفندينا قبل أن تسأل أي سؤال عنه فابتسم محمود بك حيث فهم مغزي السؤال وبدأ في الكلام مستعيناً ببعض أوراقه التي لا تفارقه والتي تتضمن الكثير من المعلومات

عندما تولى أفندينا ولي النعم حكم مصر :

- وتكلم محمود بك كما يخاطب التلميذ النجيب أستاذه فقال :
- تولى أفندينا ولي النعم اسماعيل باشا ابن ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا حكم مصر سنة ١٨٦٣م بتقليد من السلطان العثماني عبد العزيز ، ولقد وجه أفندينا ولي النعم عنايته الفائقة إلي جيش مصر ، فعمل علي رفع مستواه العلمي وأنشأ له المدارس الكبيرة واستقدم بعض الخبراء العسكريين ، كذلك نالت البحرية قسطاً كبيراً من اهتمام أفندينا ولي النعم فأخذ في أوائل حكمه يعتني بتجديد الأسطول فبعث



النشاط في ترسانة الإسكندرية ، وكان افندينا ولي النعم يعمل علي تكوين إمبراطورية مصرية عظيمة بالتوسع جهة الجنوب في أفريقيا بعيداً عن حوض البحر المتوسط والمنطقة العربية ، حتى لا تعارضه الدول الأوروبية كما عارضت جده محمد علي باشا من قبل ، وفي طليعة حملات الجيش المصري فتح دارفور والتوسع في السودان الشرقي ، كما أتم توسيع أملاكه السودانية من الجنوب ، وعين الكولونيل شارلز جوردون حاكماً لمديرية خط الأستواء سنة ١٨٧٤م ومن قبله صمويل بيكر الذي مد نفوذ مصر حتي بحيرة فيكتوريا سنة ١٨٧١م ، وفي عهد افندينا ولي النعم استقرت السيادة المصرية علي جميع شاطئ البحر الأحمر الغربي إلي بربرة في الصومال

- كل هذا رائع وبداية قوية ، فماذا فعل داخل مصر؟
- أما علي النطاق الداخلي في مصر فقد نهض افندينا ولي النعم بالتعليم من أجل التعليم ، فأنشئت مدارس الحقوق ودار العلوم بجانب مدرسة المهندسخانة والطب البيطري والفنون والصنائع والألسن والآثار ، وأنشئت الجمعية الجغرافية وظهرت العديد من الصحف العلمية والأدبية
- جميل ، فماذا عن الري والزراعة ؟
- أنشئت مئات من منشآت الري أهمها ترعة الإبراهيمية والإسماعيلية و ٢٠٠ ترعة أخرى تقريباً ، أما في مجال الزراعة فاهتم افندينا ولي النعم بزراعة القطن وقصب السكر لسد حاجة أوروبا منهما ، وزادت الأراضي الزراعية مع إصلاح القناطر الخيرية ، ومدت خطوط السكك الحديدية في الوجهين القبلي والبحري وأنشأ ما يزيد علي ٥٠٠٠ ميل من الأسلاك التلغرافية ، واستخدمت الطوايح لتوضع علي خطابات البريد بل أنشأ هيئة البريد رسمياً ، أما في مجال العمران فقد أنشئ كوبري قصر النيل وكوبري الجلاء ودار الأوبرا ودار الآثار المصرية ودار الكتب المصرية ، وتم تمهيد شارع الهرم وشارع محمد علي وبناء جامع الرفاعي وافتتحت الملاحة في قناة السويس رسمياً في حفل بهيج سنة ١٨٦٩م ، وازدهرت المدن بالمباني الحديثة وازدانت بالقصور ، مثل سراي عابدين ، وسراي الإسماعيلية ، وسراي الجزيرة وسراي الجيزة والقصر العالي وسراي الزعفران وسرايات أخرى ، مع حبه الشديد لبناء الحدائق والبساتين مثل بستان الجيزة وبستان الجزيرة وبستان الأورمان وبستان الأزبكية ، كما دعا افندينا ولي النعم السلطان عبد العزيز لزيارة مصر وهو أول سلطان عثماني يأتي لمصر منذ فتح السلطان سليم الأول لها سنة ١٥١٧م ، واستغل افندينا ولي النعم وجود السلطان وأغدق عليه العديد من الهدايا حتي حصل منه علي فرمان سنة ١٨٦٦م بتعديل نظام الوراثة في حكم مصر ليكون في أكبر أبناء افندينا ولي النعم - وكان من قبل في أكبر أبناء أسرة محمد علي بشكل عام - كما منح افندينا ولي النعم لقب خديو سنة ١٨٦٧م
- وبالطبع قام بإطلاق اسم عبد العزيز علي الشارع الشهير في القاهرة

- ويعتبر افندينا ولي النعم هو أول من وضع تماثيل العظماء في الشوارع مثل تمثال والده إبراهيم باشا ، وأنشأ المحاكم المختلطة يشترك في الجلوس علي منصاتها مع المصريين رجال القانون الأجانب ، وقد أصدر افندينا ولي النعم سنة ١٨٦٤م قراراً بتكوين مجلس شوري النواب وقد افتتحه سنة ١٨٦٦م وكان عدد أعضائه ٧٥ عضواً ويعد هذا المجلس أول خطوة في سبيل إشراك المصريين في شئون البلاد

- ولكن هل تعرف يا بك كيف قام بكل هذه الأعمال الضخمة ومن أي مصدر صرف عليها ؟  
- لتحقيق كل ما سبق كان لابد من توفير الأموال اللازمة فأقدم علي اقتراض المال بدون حساب ، وكان افندينا ولي النعم يعقد القروض بفوائد باهظة ويدفع عمولة للوسطاء ، وفي سنة ١٨٧٥م بيعت أسهم مصر في قناة السويس وكانت حصتها ٤٤% (من الأسهم) بثمن بخس وهو ٤ ملايين جنيه في وقت كانت تساوي فيه أكثر من ٤٠ مليون جنيه ولجأ إلي بيع بعض المصالح الحكومية ورهن البعض الآخر

وهنا بدأت تعبيرات وجه مظهر باشا تتغير ولكنه لم يمنع محمود بك من الاستمرار  
- ومن هنا بدأ القلق يساور حملة سندات الديون المصرية وراجت حقيقة سوء أحوال مصر المالية الأمر الذي أدي إلي وثوب الأجانب ، فاضطر افندينا ولي النعم لتهدئة خواطر دائنيه وتأمينهم علي أموالهم إلي أن يحني رأسه للعاصفة ويتنازل عن كثير من سلطاته ونفوذه ويستدعي الخبراء والبعثات الأجنبية لفحص الحالة المالية في البلاد وطرق إصلاحها ، مثل بعثة كييف وبعثة جوشن وجويير وصندوق الدين ولجنة التحقيق حتي فرض الأجانب علي افندينا ولي النعم التنازل عن أملاكه وتخصيص مرتب سنوي له وتعيين وزارة مسئولة برئاسة نوبار باشا نوبريان الأرمني وعضوية السير رفرز ولسن للمالية ومسيو دي بلنير للأشغال ، ورأي الأجانب -اقتصاداً في المصروفات- توقف المشروعات والإصلاحات لسداد الديون وأرباحها مع زيادة الضرائب علي الأهالي

- وكان هذا بالطبع أول تحول سلبي في مسار افندينا ولي النعم  
- وتقدم الأعيان وأعضاء مجلس شوري النواب إلي افندينا ولي النعم يطلبون وضع حد للتدخل الأجنبي مطالبين بتعيين حكومة وطنية وكانت استجابة افندينا ولي النعم لذلك الطلب حجر الزاوية في ضغط الدول الأوروبية

- أراك يا محمود قد تحدثت عن كل ما يخص عصر افندينا ولي النعم ولم تغفل شئ فماذا تريد أن أحدثك عنه ؟

- ماذا عن شعف افندينا ولي النعم بتشديد القصور ومعلومات معاليك عنه ؟

## افندينا ولي النعم وشغفه بتشبيد القصور

- كانت عناية افندينا ولي النعم بتشبيد القصور تفوق ما شيده أسلافه من الولاة والسلطين وأعظمها روعة وجلالاً سراي عابدين التي ترك القلعة وأقام فيها كأول حاكم لمصر لا يقيم بالقلعة منذ العصر الأيوبي ، وسراي الجزيرة وسراي الجيزة ، ومن طريف ما يروي أن ولي عهد بروسيا أحد ضيوف افندينا ولي النعم في الاحتفالات الأسطورية عام ١٨٦٩ قد أبدى رغبته في مشاهدة قصور الخديوي ، فسأل الخديوي أحد ندمائه الشيخ علي الليثي قائلاً :
- يا شيخ علي ، إذا أمرتك بمصاحبة ولي عهد مملكة بروسيا فعلي أي القصور تفرجه ؟
- فرد الشيخ علي قائلاً :
- علي قصر الجيزة
- فسأله الخديو :
- وبعدين تفرجه علي أي قصر ؟
- فأجاب :
- علي قصر الجزيرة
- فقال الخديو :
- وبعدين ؟
- فأجاب :
- وبعدين أوديه علي السرايا الصفرا مباشرةً
- فاندesh الخديو من الإجابة وقال :
- أنت اتجننت يا شيخ علي ؟
- فقال الشيخ علي :
- هو فيه حد يتفرج علي السرايتين دول ولا يتجننش يا أفندينا
- فلم يتمالك افندينا ولي النعم نفسه من الضحك وأمر له بجائزة
- إنها قصة طريفة بالفعل وتؤكد العديد من المعاني منها فن مسامرة الملوك وأساليب الندماء ، ولكن هل لديك وصفاً لشخص الخديو نفسه عن قرب ؟
- إن من أفضل الأوصاف لشخص الخديو ما كتبه قنصل أمريكا في مصر وقد وصلني هذا الوصف من شخص أثق به وهو علي علاقة بالقنصل
- فمن يكون هذا القنصل وماذا كتب عن الخديو اسماعيل ؟
- قنصل أمريكا في مصر منذ عام ١٨٧٦ هو "ألبرت لي فارمان"، ويصف القنصل الأمريكي "فارمان" بالتفصيل أول واجب قام به في القاهرة، عند وصوله إليها ، وهو زيارة ولي النعم ، في "قصر الجزيرة"

الواقع على الشاطئ الغربي للنيل في مواجهة المدينة ، ويسهب في وصف أفندينا ولي النعم حيث قال : "... رحب بي الخديو في بلاده ولما كان لا يتكلم الإنجليزية فقد كانت محادثاتنا باللغة الفرنسية التي كان يتكلمها بطلاقة. لم يكن إسماعيل باشا جذابا من الناحية الجسمانية، كان يبلغ من العمر حوالي السابعة والأربعين، قصير القامة، عريض المنكبين، ضخمة الجثة، ولون بشرته أكثر سمرة من بشرة الأوروبيين، أما جفونه فكانت مرتخية، وكانت اليسرى أكثر إرتخاء من اليمنى، وعندما تكون ملامحه ساكنة تبدو عيناه وكأنها نصف مغلقة، وكانت حواجبه فاحمة اللون، خشنة، كثة الشعر وبارزة إلى الأمام، أما لحيته البنية الداكنة فكانت قصيرة، وأذناه كبيرتان وليست من الحسن بمكان".

- عندما يصف المصريون هذا النوع من العيون يقولون عيون دُبلي ، بينما يري القنصل أن أفندينا غير وسيم

- لكنه في محاولة لإنصاف أفندينا يشهد بأنه: "... رغم كل نقائصه ومساوئه الجسمانية كان محدثا ممتعا، يبتسم في كثير من الأحيان، بشوشا دائما ومثيرا للإهتمام. كان صوته هادئا يبعث على السرور وألفاظه مُنتقاه ومُعَبِّرة، فائق الذكاء ولديه معلومات دقيقة حتى عن التفاصيل التي تخص حكومته وشئونهِ الخاصة الشاسعة، وتبرهن نظراته الحادة الثاقبة، حينما تكون عيناه مفتوحتين من أثر حديث شائق، وإجابته السريعة الدقيقة، ومعلوماته الخاصة بموضوعات ليس من المفروض أصلا أن يكون ملما بها، تبرهن لكل هؤلاء الذين استمتعوا بالحديث معه أنه رجل يمتاز بقدرة غير عادية .... ، أضف إلى ذلك أنه كان يملك القدرة النادرة على أن يكتسب ثقة زائره بأن يزيح عن كاهله كل حرج ممكن ويجعله على طبيعته تماما..."

- هذا سلوكه عادةً مع الأجانب والله أعلم

- وفي النهاية يقول فارمان: "... قبل حفل الإستقبال الرسمي الذي أقيم لي، كثيرا ماقتم بزيارة الخديو الذي أشعرني بأني على صلة وثيقة بسموه .... وكان ينبغي على أكثر من مرة أن أقوم بواجب غير سار وهو المطالبة غير الرسمية، وإن كانت بطريقة مُلحة، بدفع التعويضات الأمريكية ضد الحكومة المصرية، وكانت الحكومة المصرية في ضائقة مالية شديدة ولذا كان مجرد ذكر أي تعويض مالي لآبد وأن يسبب بعض الضيق

- هذا عندما كان يأتي الأجانب لزيارته في مصر ، فماذا كان يفعل عندما يسافر خارج البلاد ؟

- ذهب أفندينا ذات مرة فيما أذكر لحضور المعرض الدولي في باريس وصدرت الصحف الباريسية تبشر بوصول خديو مصر إلي عاصمة الإمبراطورية الفرنسية ولما كان هذا اللقب جديداً علي المسامع ، أقبل الناس يتسألون : خديو ؟ ما هو الخديو ؟ - - وكان أفندينا قد ذهب إلي باريس وجيوبه ملأى بالنقود وخزائن المصارف بباريس ولندن تحت أمره وتصرفه ففتح يده بسخاء وبذخ لم يعهدهما العالم الغربي من عاهل من العواهل الذين زاروا المعرض فبات أحداثثة إعجاب الجميع - - ووقع في خلد

العامّة أن الخديو إنما هو أحد ملوك ألف ليلة وليلة بُعث إلي الحياة ثانية وأنه خليفة الفراعين علي عرش القطرين أكبر ملك حلت قدماء أرض فرنسا

- وما أهم ما يلفت النظر من أحداث تمت في هذه الزيارة ؟
- من الأحداث التي وقعت خلال زيارة أفندينا لباريس ، تلك القصة التي رواها الكونت دي لافيزون وهي أن أحد كبار النبلاء دعا أفندينا إلي وليمه في قصره بضواحي باريس فأجاب أفندينا ولي النعم دعوته وإذا به يري قصرًا بلغ من الجمال والجلال وفاخر الرياش ما لم يكن أحد يتوقع وجود مثله أبداً في حوزة غير الملوك فأعجب أفندينا ولي النعم به أيما إعجاب وبعد تناول الغداء وبينما المحادثة دائرة في قاعة التدخين أبدي لمضيفه استحسانه العظيم لقصره فشكره النبيل علي تطفه وكان قد قيل لأفندينا ولي النعم إن النبيل في ضيق مالي شديد فأحب مساعدته بشكل لا يتحرج له إحساسه فسأله عما إذا كان يريد بيع قصره وكان الرجل علي شدة احتياجه إلي النقود لا يري في استطاعته التجرد من ملكية ذلك البناء الفخيم ، وتحرج أن يقابل لطف الخديو بخشونة الرفض فخطر له أن يبالغ في تقدير الثمن ليحمله علي العدول عن رغبته في المشتري ، فأجاب :
- إني قد أبيعك يا مولاي مقابل خمسة ملايين من الفرنكات ولم يكن القصر يساوي أكثر من مليون ونصف مليون فرنك ، ولكن أفندينا ولي النعم التقط الكلمة من فم الرجل وهي طائرة وقال :
- إني اشتريته منك بهذا المبلغ وحرر له في الحال حوالة بثمنه علي أحد البنوك بباريس ولم يجد الرجل مفراً من قبول البيع غير أن أفندينا ولي النعم التفت فوجد فتاة هيفاء لا تتجاوز الخامسة عشر ربيعاً وعرف أنها ابنة النبيل فقال بابتسام جميل مخاطباً والدها :
- علي أي لا أحسبك تمانع في تحرير عقد البيع للآنسة ابنتك هذه اللطيفة تخليداً لذكري استحسان خديو مصر ظرفها وآدابها ولكيلا يقال أنني زرتك لأجرك من قصرك
- يا لها من مشاعر رقيقة كان المصريون أولي الناس بها ، علي أي حال كم كنت أتمني معرفة بعض المعلومات عن حفل افتتاح قناة السويس بمناسبة الحديث عن كرم أفندينا ولي النعم فأحضر مظهر باشا بعد الأوراق التي كان يحتفظ بها عن هذا الموضوع وقال :

### افتتاح قناة السويس للملاحة في عهد أفندينا ولي النعم

- سأتلو عليك البيانات الرسمية عن سير العمل في قناة السويس إلي يوم افتتاحها كما جاءت في تقويم النيل لصاحبه أمين سامي باشا المؤرخ المشهور ١ - كان مبدأ العمل في حفر قنال السويس حصل في بورسعيد يوم ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ الموافق ٢١ رمضان سنة ١٢٧٥ هـ ، ٢ - صرفت شركة مساهمة القتال في برزخ السويس ٤٨٠ مليوناً من الفرنكات بما في ذلك أماكن العمال وبناء مدينتي

بورسعيد والإسماعيلية والمحافظات والمكافآت التي كانت تعطي زيادة علي المرتبات ، ٣ - بلغ عدد العمال الوطنيين الذين أعدتهم الحكومة لهذا العمل بدون أجر ( سخرة ) ٢٧٠٠٠ نفس ، وأما عدد المستأجرين والمستخدمين فبلغ خمسة آلاف نفس تقريباً ، ٤ - بلغ طول القتال من بورسعيد إلي السويس ٨٧ ميلاً ، ٥ - حصل الاحتفال بالسفر فيه يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، وقد حضر هذا الاحتفال كل من جلالة إمبراطورة فرنسا ، وجلالة إمبراطور النمسا والمجر ، الأمراء أولياء عهد روسيا وبروسيا وهولندا ، وحضر أيضاً بالنيابة عن دولة إنجلترا رئيس عمارة حربية ، ٦ - وأول سفينة تجارية مرت بالقتال بعد الاحتفال بافتتاحه دافعة عوائد المرور باعتبار عشرة فرنكات عن كل طونولاته هي السفينة المسماة " أمبيراتريس "

- إنها معلومات طريفة وجديدة بالنسبة لي كما أنها تتسم بدقة الأرقام والتفاصيل ، فماذا عن الاحتفالات الأخرى التي اشتهر أفندينا بإقامتها
- هناك بالطبع الاحتفالات الشهيرة التي أقامها بمناسبة زواج أنجاله
- بالطبع أعرفها ، فهل لدي سعادتك وصف دقيق لها ؟

### أفراح الأنجال

- من الأقوال المأثورة عن أفندينا ولي النعم قولهم عنه أنه لن يأتي الزمن بمثله في أبهة الملك وفخفته السنية - وهو وصف صحيح يمثل شخصية أفندينا ولي النعم أصدق تمثيل ، وكل ما تسمعه من أوصاف خيالية عن ألف ليلة وليلة تتواضع إلي جانب ليالي إسماعيل وحفلاته الصاخبة وسهراته المخملية

- ليالي أفندينا ولي النعم تشبه ليالي ألف ليلة وليلة ، سبحان الله
- أفندينا ولي النعم يلتبس - بل يفتعل - المناسبات السعيدة لإقامة الحفلات ، وإذا كانت احتفالات افتتاح قناة السويس قد بهرت ملوك أوروبا وأميراتها فإن أفراح الأنجال فاقت الأولى في بذخها وإسرافها وتواصلها أربعين يوماً بلياليها ، ولا ننسى أن أفراح الأنجال أقيمت بعد أربع سنوات من حفلة القناة ، والأنجال الأربعة كما تعرف ثلاثة ذكور وفتاة ، أولهم ولي العهد الأمير توفيق وعروسه الأميرة أمينة والثاني الأمير حسين كامل وعروسه الأميرة عين الحياة والثالث الأمير حسن واختار له أبوه عروسه الأميرة خديجة وفاء لوعده قطعه لها ، ولهذا الوعد قصة طريفة

- وما هي قصة هذا الوعد ؟
- بدأت القصة عندما كان أفندينا ولي النعم يتفقد الدراسة في مدرسة البلاط التي أنشأها لتعليم الأميرات ، ولما وجد التلميذة خديجة أخذ يحثها علي الاجتهاد في تحصيل العلم وحفظ القرآن وبعد سنوات ذهب أفندينا ولي النعم لزيارة المدرسة وسأل خديجة عما حفظته من القرآن الكريم فأجابت علي الفور :

- (وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۖ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ --) (سورة مريم)



وانبسطت أسارير أفندينا ولي النعم لذكائها وحسن تصرفها ، وضحك قائلاً :

- أجل أجل لن أنسي وعدي

واختارها زوجة لابنه الأمير حسن

- واضح أنها فتاة ذكية

- أما الابنة الوحيدة التي احتفل أفندينا ولي النعم بزواجها فهي الأميرة فاطمة ، ووقائع أفرح الأنجال

رواها إلياس الأيوبي نقلاً عن الكتّاب الأوروبيين الذين شاهدوا الأفرح

- الكتاب الأوروبيون هم من كتبوا عن هذه الإحتفالات شئ عجيب جداً

- بدأت الإحتفالات يوم ١٥ يناير ١٨٧٣ واستمرت أربعين يوماً بمعدل عشرة أيام لكل واحد من الأنجال ،

وزيّنت الشوارع الممتدة من القصر العالي إلي قصر الجزيرة ، إلي سراي القبة ، بالنجف والفوانيس

المختلفة الألوان ، وفي نهاياتها أقيمت أقواس النصر تعلوها الشموع ، فسطعت الأضواء حتي جعلت

القاهرة شعلة من النور ، وفي أهم الميادين أقيمت المسارح للفرق الموسيقية والغنائية وأهمها فرقة

عبد الحمولي ، وفي اليوم الخامس عشر بدأ خروج الهدايا المقدمة من الوالدة باشا وزوجات أفندينا

ولي النعم إلي العرائس من القصر العالي وبدأ موكب شوار عروس ولي العهد في حراسة صفوف

الفرسان وآلاي من المشاة في ملابس بيضاء ناصعة ، وكانت الهدايا عبارة عن مجوهرات وقلاند من

الماس من نوع البرلنتي ومناطق من الذهب الخالص وأقمشة مطرزة باللؤلؤ وزمرد في حجم البيض

وآنية متنوعة من الفضة الصب وكان من بين الهدايا المقدمة من أفندينا ولي النعم لولي عهده سرير

من الفضة الصب الخالصة محلاه بماء الذهب الأبريز وعواميده الضخمة مرصعة بالماس والياقوت

الأحمر النادر والزمرد والفيروز واجتاز الموكب شوارع العاصمة ولم يختلف شوار الأميرات عين الحياة

وخديجة وفاطمة عن شوار الأميرة أمينة

- لا أستطيع التعليق علي كل هذا البذخ ، ولكن لماذا يتم استعراض الهدايا في موكب أمام عامة الشعب

، ألا يكفيه أن يري الزينة والأنوار ؟

- لديك كل الحق فلم يكن هناك داعي لأن يري الناس كل هذه الهدايا الثمينة

- ألم يكن هناك شخص واحد في مصر قادر علي أن يقول رأيه بصراحة لأفندينا ولي النعم ؟

- أعتقد أن أفندينا ولي النعم آخر من حكم مصر حكم مطلق دون مراعاة لأي ضغوط داخلية أو خارجية

، وذلك علي الأقل إلي أن تم التدخل الأجنبي في مصر بسبب استفحال الديون ، وحتى السيادة

العثمانية كما تعرف سيادة شكلية إلي حد كبير ، فكان يفعل ما يشاء في مصر دون أن يحاسبه أحد

في الداخل والخارج

- إذن فأفندينا ولي النعم هو من يصح أن نطلق عليه الفرعون الأخير قبل استفحال الديون

- ومع ذلك فقد أحرجه أحد شيوخ الأزهر أمام الجميع ، وهي قصة طريفة

- وكيف حدث ذلك ومن هو هذا الشيخ ؟

### البتشتي.. القناوي الأزهري الجريء الذي تحدى أئدينا ولي النعم

- إنه الشيخ توفيق محمد خليفة، الذي عُرف بـ 'توفيق البتشتي'، وينسب إسمه إلى مسقط رأسه مركز أبو تشت، أول مراكز محافظه قنا ، والشيخ توفيق البتشتي، من الطراز المتميز في تفكيره وطريقة تعبيره وأسلوبه في عرض المسائل العلمية، مما حبب الطلاب فيه، فانتسعت حلقات دروسه، وضاق المكان بالراغبين في علمه، وانفرد برقعة شاسعة من الأزهر، ساعده فيها صوته الجهوري وحنجرته القوية ، وعُرف عنه أنه يرفع راية الحق لا يخشى حاكمًا، ولا يتملق سلطانًا، فحين وقعت الحرب بين مصر والحبشة، في عهد أئدينا ولي النعم ، وتوالت الهزائم، وضاق صدر أئدينا ولي النعم ، فقال له شريف باشا رئيس النظار: إذا لجأت إلي علماء الأزهر الأظهر وقرأوا البخاري يفرج الله الكرب وينتصر الجيش، فكلم أئدينا ولي النعم الشيخ العروسي، شيخ الأزهر، فجمع له من العلماء الصالحين، وأخذوا يتلون البخاري أمام القبلة القديمة في الأزهر، ولكن أخبار الهزائم ظلت تتوالى وانتصارات العدو تتعاضم، فرجع أئدينا ولي النعم إلي العلماء واتهمهم بأن ما قرأوه إما ليس صحيح البخاري، أو إنهم ليسوا علي مستوى سلفهم الصالح، فسكت العلماء وصرخ البتشتي من آخر الصف

- هُزمتنا منك يا إسماعيل، فإننا روينا عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال: لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم

- يا له من شيخ جريء حقاً ، فماذا كان رد فعل أئدينا ولي النعم ؟

أطرق أئدينا ولي النعم ، وانصرف ومعه شريف باشا، ثم رجع أحد مماليكه يطلب الشيخ المتحدث واصطحبه معه إلي القصر، وطلب منه الخديوي أن يعيد ما قاله، فأعاد الشيخ حديثه وشرحه، فتساءل الخديوي:

- ماذا صنعنا حتى ينزل بنا البلاء؟

فأجابه الشيخ

- إن قوانينكم يا مولاي تبيح الزنا وترخصه وكذلك الخمر  
فبرر الخديوي قائلاً :

- إن تلك العادات نُقلت لنا من أوروبا

فرد الشيخ :

- إذن فما ذنب البخاري وما حيلة العلماء

فصمت الخديوي وصدق علي كلامه وكافاه علي جرأته

- إن هناك فرق كبير بين أحوال مصر قبل عصر أفندينا ولي النعم وأحوالها بعد عصره ، ولقد اعترف بنفسه أنه قام بنقل عادات أوروبا إلي مصر بطلوها ومرها حتي وصل الحال لما وصفه الشيخ بقوله أن القوانين تبيح الزنا وترخصه وكذلك الخمر وهو لم يكن مقتناً أبداً في مصر قبل ذلك
- معك كل الحق فقد كان هناك فرق كبير جداً بين من أحضرهم محمد علي باشا من أوروبا إلي مصر وبين من حضروا في عصر أفندينا ولي النعم ، فقد كان محمد علي ينقل الخبرات والحضارة والعلم وكل ما ينفع مصر أياً كانت نواياه وأهدافه ، أما اسماعيل فقد حضر في عهده المرابين وتجار الأعراس وحثالة أوروبا ، وشتان بينهم وبين سليمان باشا الفرنساوي وكلوت بك وغيرهم ممن أفاد مصر في عصر محمد علي باشا
- إنه شئ محزن بالفعل

### أفندينا ولي النعم يقلد أوروبا

- لقد كان أقصى ما يريده أفندينا ولي النعم أن يبدو أمام ملوك أوروبا في صورة الفنجري القاعد علي أموال قارون ثم ينثرها ذات اليمين وذات الشمال ولو عن طريق السلف من بيوت الربا والبنوك الأوروبية
- وكان هؤلاء الملوك بالطبع يعرفون الحقيقة المفزعة وهي أن هذه الأموال هي من خزائن بنوكهم وهي بضاعتهم ردت إليهم في أشكال من السفه والبذخ والفشخرة الكدابة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً
- للأسف إن استفحال الديون يؤكد ما تقول
- ومضي أفندينا ولي النعم في تقليد الأوروبيين في عاداتهم وسلوكياتهم وملابسهم وسهراتهم متناسياً أنه حاكم مسلم يحكم شعباً مسلماً له موروثاته وعاداته وتقاليده وأن تبديل العادات والتقاليد عن طريق الصدمات والطفرات يؤدي إلي نتائج عكسية لأن عملية التطور الاجتماعي تتطلب تهيئة ذهنية وثقافية طويلة المدى ولم يلتفت إلي ملاحظات وانتقادات رجال الدين لمظاهر التفرنج بل بطش بمشايخ الأزهر عندما عارضوه وانتشي بمدائح الكتاب الأوروبيين الذين باركوا سياسته وانهالت مقالاتهم بنزعتهم التحريرية ومسايرته لروح العصر
- ولم تكن هذه المقالات لوجه الله وإنما مقابل الأعطيات التي كان يغدقها عليهم أفندينا ولي النعم والتي بلغت خمسة ملايين جنيه في تقدير البعض
- سبحان الله ، مقالات مدفوعة الأجر ، فما قصة مجلس شورى النواب الذي تم تأسيسه بأوامر أفندينا ولي النعم ؟

## مجلس شوري النواب

- لقد كان يريد أفندينا أن يتباهي أمام ملوك أوروبا بأن لديه برلمان مثلهم ولكن حدث ما لم يكن يتوقعه من هذا البرلمان ، فكأنما قام بتحضير عفرية ولم يتمكن من صرفه كما يقولون
- فماذا حدث ؟
- فهل كان أفندينا وهو يضع لبنات مجلس شوري النواب يتوقع أن ينقلب الهزار إلي جد ؟ وأن يتحول هذا المجلس الضعيف المسالم إلي شريك مخالف شرس ؟ وأن يصيح أحدهم في وجه رياض باشا حين أراد فض المجلس دون النظر في الميزانية :
- أننا هنا سلطة الأمة ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب
- قالها عبد السلام المويلحي في صباح يوم الخميس ٢٧ مارس ١٨٧٩ م عندما توجه رياض باشا وزير الداخلية ورمز الاستبداد وهو منتفخ الصدر إلي قاعة مجلس النواب بالقلعة ليتلو قرار فض الدورة
- حتي تكتمل المؤامرة التي دبرها رئيس الوزراء نوبار باشا مع الوزيرين الدخيلين - الإنجليزي والفرنسي - لإعلان إفلاس مصر كحل أخير لأزمة الديون الأجنبية وعلمت العناصر الوطنية في المجلس بما تدبره الحكومة في الخفاء ، فأعدوا مشروعاً مضاداً يقضي أن يلتزم المصريون بتسديد الديون من دخلهم القومي بشرط تنظيم الشؤون المالية وإصلاح مفاصل الإدارة بعيداً عن الوزيرين الأجنبيين وبالرغم من مغادرة رياض باشا المجلس غاضباً ظل المجلس في حالة انعقاد وتناوب الأعضاء علي المبيت في القاعة حتي استقالت الحكومة

## الاستعمار الاستيطاني

- أريد أن نتوقف قليلاً إذا سمحت لي عند التوغل الأجنبي في مصر في عصر أبناء محمد علي باشا، لأنه موضوع خطير أدي إلي وجود محاكم خاصة بهم وامتيازات خاصة بهم في مصر
- إن ما حدث يسميه البعض الاستعمار الإستيطاني
- فماذا يقولون عنه ؟
- ظلت خطوط الملاحة ، وكل أنواع السفن تنقل حمولاتها البشرية النهمة ، لتلقي بها علي أرصفة الإسكندرية ، التي أصبحت بوابة الاستيطان وأكبر مراكزه ، - كذلك فعل منها عناصر طيبة صالحة بالمستوي العلمي والفني أو بالمقياس الأخلاقي ، لكن تلك هي الأقلية النادرة ، الاستثناء الشاذ ، فالمسلم به حتي بإجماع الأوروبيين أنفسهم ، أنها في معظمهما تمثل مجاج الشمال ونفاية أوروبا وحثالة البحر المتوسط ، فتقريباً معظم هؤلاء المهاجرين الأوروبيين كانوا من المغامرين والأفاقين ، وأصحاب السوابق والمزورين واللصوص والمجرمين والهاربين من يد العدالة من كل صنف بلا تعليم أو

حرفة أو مهنة غالباً وبلا أخلاق علي الأغلب وعلي الأفضل من المرابين والسماسرة وأصحاب الأعمال المشبوهة والكل تقريباً لا هدف له إلا أن يصنع ثروة بالحلال أو الحرام ، والحرام بالدرجة الأولى ، وذلك في ظل الامتيازات الأجنبية وعصر القناصل أو العصر الذهبي للقناصل

- يا لها من كارثة حلت بمصر

- ومما له دلالاته أن بعضهم كان يغير اسمه في مصر ومعظمهم يخفي اسم عائلته وحتى أكثرهم احتراماً بين المستعمرة الأوروبية لم يكن فوق الشبهات وكان من أصل مشكوك فيه ، ويكاد المرء يخلص من هذا كله إلي أننا إلي حد بعيد إزاء مافيا عظمي ، إلا أنها للتناقض والأسف مافيا فوقية لا سفلية ، علي قمة المجتمع الضحية ، لا في قاعه كما ينبغي علي الأقل ، وهذا بدوره ما يضع أيدينا علي خلاصة الاستعمار الاستيطاني في مصر ، وعلي الجملة يمكن القول إن الجاليات الأوروبية في مصر كانت تمثل وجه أوروبا القبيح بمثل ما أن الاستعمار عموماً هو الوجه القبيح للحضارة الأوروبية الحديثة ، وإذا صح أن الامتيازات الأجنبية كانت جديرة بأن تفسد رجالاً أفضل منهم ، فالصحيح أيضاً أنهم كانوا عناصر فاسدة بالأصل ، وإذا كان البعض يزعم أنه لم يكن بديل لهذه الجاليات كأداة للتحضير والاحتكاك الحضاري والأوربة فإنه حقاً لثمن باهظ جداً بل ورهيب ذلك الذي دفعته مصر مادياً ومعنوياً ، إنسانياً وبشرياً في سبيل الحصول علي الحضارة الحديثة ، فعلي المستوي المعنوي والاجتماعي فإن المستعمرة الأوروبية رغم أصولها الاجتماعية السفلي جاءت لتفرض نفسها في مصر أرستقراطية طبقية دخيلة علي قمة الهرم الاجتماعي الوطني ، كمجتمع فوق المجتمع ، بل ولتتحول بفضل الامتيازات الأجنبية ونظام الحماية والمحاكم المختلطة إلي دولة داخل الدولة تكاد تمثل في مواطنها الجديدة نوعاً من الامتيازات الإقليمية ، من ناحية أخرى ، وبحكم الحاجز الديني فإنهم كانوا وظلوا أيضاً مجتمعاً معزولاً مغلقاً علي نفسه ، أشبه بالمعسكرات ، غير قابلة للاختلاط -التزاوج- أو الذوبان في المجتمع الوطني ، والنتيجة الصافية هي مجتمع منقول بكامل جذوره وبيئته ومناخه الحضاري والاجتماعي باختصار ، جزر أوروبية فرضت علي الأرض المصرية ، قطعة من أوروبا في مصر ، التي لم تصبح بهم علي أية حال قطعة من أوروبا بالمعني الحقيقي

- إن ما ذكرته يعبر عن مأساة كبري عاشتها مصر بعد انتهاء عصر محمد علي باشا وإبراهيم باشا وعباس باشا بلا شك وتزايدت وتعاضمت في عهد أفندينا ، ولكن كيف سمح رجال أفندينا المقربون بكل هذا ولا تنسي أن سعادتك قد وعدتني بالحديث عنهم بشئ من التفصيل

### رجال دولة أفندينا ولي النعم

- أعلم أن علي باشا مبارك ومحمد سلطان واسماعيل صديق المفتش ومحمد شريف باشا ومصطفى رياض باشا ونوبار باشا أسماء ملء السمع والبصر بحق في نخبة أفندينا الحاكمة ، والطريف أن

السيرة الذاتية لهؤلاء الرجال الستة متنوعة الجذور الاجتماعية والتعليم والنفوذ ، وكذلك اهتماماتهم المشتركة ، خاصة فيما يتصل بالأرض والإصلاح

- كيف ؟

- فمثلاً يعتبر علي مبارك ، أبو التعليم في مصر الحديثة ، المصلح والوطني المصري الذي ظل فقيراً نسبياً طوال حياته ، ومن ناحية أخرى تمثل الحياة الوظيفية لمحمد سلطان التطور الذي أصبح من خلاله الموظفون من أبناء البلاد ، عبر صلاتهم بالعاصمة ونفوذهم في الأقاليم ، مراكز قوي بحق ، وتُظهر حياة اسماعيل صديق المفتش قيمة العلاقة الشخصية الوثيقة بالحاكم

- كونه أخ لأفندينا من الرضاعة

- صحيح ، ويجسد محمد شريف باشا الذي يطلقون عليه أبو الدستور في مصر ، الولاء التركي ذا الميل السطحي للغرب ، وكان مصطفى رياض باشا الذي تولي رئاسة مجلس النظار لثلاث مرات ، مسلماً محافظاً يرحب بالتعاون مع أوروبا

- فماذا عن نوبار باشا ؟

- تظهر الحياة الوظيفية لنوبار باشا ، رجل الدولة بلا منازع ، إلي أي مدي يمكن للصلة الأوروبية أن تدعم موظفاً ، وفي النهاية فإن كلاً من هؤلاء الرجال الستة قدر له ، بطرق مختلفة ، أن يلعب دوراً رئيسياً في التطورات التي حدثت بعد عام ١٨٧٤ بعد تأزم الموقف الإقتصادي ، فمن هؤلاء الرجال تحب أن أحدثك عنه ؟

- أحب أن أعرف بعض المعلومات عن علي باشا مبارك ثم عن اسماعيل باشا صديق المفتش فهما في تقديري يمثلان الجانبان الطيب والشرير لأفندينا ، ولكن قبل كل ذلك كنت أتمني أن تحدثني عن ذكرياتك مع أول قرض يحصل عليه أفندينا ولي النعم

### ذكريات بداية قروض ولي النعم

- إنها ذكريات مريرة يا محمود بك فكل صوت ولي النعم ما زال يتردد في أذني عندما تولي العرش وهو يقول : (إن أساس الإدارة هو النظام والإقتصاد في المالية ، وسأبذل كل جهدي في اتباع قواعد النظام والإقتصاد ، وقد عزمت أن أرتب لنفسي مخصصات محدودة لا أتجاوزها أبداً ، وسأعمل علي إبطال السخرة التي اعتمدت عليها الحكومة في أعمالها ، وآمل أن تؤدي حرية التجارة إلي نشر الرفاهية والرخاء بين جميع طبقات الشعب ، وسأعني كل العناية بتوظيف دعائم العدالة) تلك عهود أفندينا في ختبة العرش وأولها اتباع قواعد النظام والإقتصاد

- إنه كلام رائع ليته تم ، فماذا حدث بعد ذلك ؟

- لم تكد تمضي عدة أشهر علي هذه الدعوة حتي أخذ ينقضها ، ففتح باب القروض متلاحقة بعضها إثر بعض ، واتخذها عادة تكاد تكون سنوية



- فهل كانت حالة البلاد المالية وقتها مما يستدعي الاقتراض ؟
- بالطبع لا ، لأن مصر تُعد من أغني بلاد العالم ، وتستطيع إذا هي وجدت إدارة حكيمة أن تسلك سبيل التقدم والعمران دون أن تحتاج إلي قروض ، وعلاوة علي ذلك فإن ما نشأ عن الحرب الأمريكية الأهلية من ارتفاع أسعار القطن في أوائل حكم أفندينا قد جعل البلاد في حالة يسر ورخاء ، واشتملت ميزانية سنة ١٨٦٤ علي زيادة في الدخل علي الخرج
- سنة ١٨٦٤ هي السنة التي حدث فيها أول قرض ؟
- أجل ولم تكن البلاد في حاجة إليه
- فماذا كان مبرر أفندينا كي يحصل علي هذا القرض ؟
- لقد تذرع لتسويغه بحاجة الحكومة إلي المال لمقاومة الطاعون البقري الذي انتاب البلاد في ذلك العهد ولسداد أفساط ديون سعيد باشا ، والطريف أن مقاومة الطاعون البقري كانت حجة واهية لأن الفلاحين والملاك هم الذين احتملوا وحدهم الخسائر الناشئة عن هذا الطاعون فكل ما أنفقتة الحكومة بسبب الطاعون البقري حوالي ١٢٥٠٠٠ جنيه
- فكم كانت قيمة قرض سنة ١٨٦٤ ؟
- بلغ ما يزيد عن خمسة ملايين جنيه ونصف تقريباً
- فماذا كان السبب الحقيقي للقرض ؟
- السبب الحقيقي أن أفندينا لم يحقق وعود الإقتصاد التي قطعها علي نفسه ، بل سار سيرة بذخ وهوي وإسراف ، واستكثر من شراء الأطنان والأملك لنفسه والإنفاق عليها . واشتري في ذلك الحين قصر (ميركون) علي ضفاف البوسفور ليتخذ مقرّاً له عندما ينزل الآستانة ، ولم يكن لولاية مصر قصور خاصة بهذه المدينة ينزلون بها من قبل ، ولكن أفندينا رأي من استكمال مظاهر البذخ أن يكون له قصر فخم لا يقل بهاء ورواء عن قصور السلاطين ، فابتاع ذلك القصر وأنفق المبالغ الطائلة في توسيعه وزخرفته ، وفي ذلك العهد بدأ يُنشئ القصور الفخمة في مصر فشرع في إقامة سراي الجيزة وهذه النفقات الباهظة جعلت أفندينا يفكر في قرض آخر ، ولما تمضي ثمانية أشهر علي القرض الأول وما المشكلة في بناء القصور ؟
- ليس من ضير أن يبني ولي الأمر ما شاء من القصور ، ولكن إذا كانت مالية البلاد لا تسمح بنفقات تلك المباني ولا سبيل إلي إقامتها إلا من القروض فلا تسوغ الاستدانة لهذا الغرض ، لأنه لا يجوز أن تقترض حكومة رشيدة قرصاً ما لإنفاق قيمته علي مثل هذه الكماليات
- فهل كان هناك سبب آخر للقرض الثاني ؟
- نعم ، فقد انتهت الحرب الأهلية الأمريكية فتم فتح الأسواق أمام القطن الأمريكي وبالتالي انخفضت أسعار القطن المصري مما تسبب في أزمة مالية أوائل سنة ١٨٦٥ للفلاحين حيث استدانوا من

المرايين علي أساس رد الديون في موسم بيع القطن فلم يتمكنوا من السداد ، فقرر ولي النعم الاقتراض لسداد ديون الفلاحين

- إنها فكرة حكيمة وتدل علي عطف ولي النعم علي شعبه
- أجل ولكن اقتران الفكرة باستدانة قرض جديد من الخارج أفقدها بهاءها ، فلو اتبع أفندينا سياسة التدبير والاقتصاد في النفقات لما كانت الحكومة في حاجة إلي هذا القرض الجديد ولا الذي سبقه ، فضلاً عن الديون السائرة التي لم يكن يعرف مقدارها
- وما هي الديون السائرة ؟
- إنها الديون التي كان يقترضها بسندات علي الخزانة وكان يقترضها بفوائد فاحشة من المرايين داخل مصر وقدر البعض أن قيمتها قد وصلت إلي عشرة ملايين جنيه
- فهل اقترض سنة ١٨٦٦ ؟
- بالتأكيد فقد أصبحت عادة شبه سنوية ، والعجيب أنه اقترض قرضين متتابعين
- فما قصتهما ؟
- تبدأ القصة بقرض ٣ مليون جنيه استدانه من بنك أوبنهايم في ٥ يناير سنة ١٨٦٦ ورهن في مقابله إيرادات السكك الحديدية ، وقد جرت المفاوضات بشأن هذا القرض أثناء مفاوضات القرض السابق ، وهذا من أغرب ما سُمع في معرض التبذير وقصر النظر ، فلما طالّت المفاوضات بشأن القرض ، لم يُطق أفندينا صبراً ، فاقترض من بنك آخر اسمه بنك الأنجلو ، ثم تمت مفاوضات بنك أوبنهايم فأتم صفقته أيضاً
- فأين ذهبت كل هذه الأموال ؟
- ذهب معظمها في إرسال هدايا للسلطان وحاشيته لاستصدار فرمان سنة ١٨٦٦ الذي جعل وراثة العرش في بكر أبنائه ، كما اشترى أملاك أخوه الأمير مصطفى فاضل وعمه الأمير محمد عبد الحليم وقد كلفه ذلك الكثير ، فقد كان يسعى لتجريد الأميرين من أملاكهما بالقطر المصري وكان يحقد عليهما لمنافستهما إياه علي العرش
- أي أنه اقترض كل هذه الأموال تحقيقاً لأطماع شخصية وإرضاء لحزازات عائلية لا شأن للبلاد بها ولا نفع للشعب نفسه بها
- وأقترض أيضاً سنة ١٨٦٧ ثم حدثت الكارثة الكبرى سنة ١٨٦٨ وهو تغييره وزير المالية
- وهل هذه تُعد كارثة ؟
- بالتأكيد فقد عزل اسماعيل راغب باشا من وزارة المالية بحجة عدم قدرته علي التفاوض السريع بشأن القروض وأتى بأخيه في الرضاع اسماعيل صديق المفتش الذي بعد أن تولي الوزارة أصبحت القروض

لا أول لها ولا آخر وسوف أحدثك عنه بشئ من التفصيل هو وغيره عندما نستعرض كبار رجال الدولة في عهد أفندينا كما وعدتك

- عظيم جداً ، فلنبدأ الحديث عنهم الآن ، ولنبدأ بالحديث عن علي باشا مبارك أولاً

### علي مبارك ، أبو التعليم في مصر الحديثة

- إنه الجنب الأمد والملاذ الأسعد سعادة علي باشا مبارك حفظه الله ، إنه واحد من أفضل مهندسي عصره

- فمتي وُلِدَ تقريباً ؟

- علي ما أذكر سنة ١٨٢٣ أو ١٨٢٤ في قرية برنبال الجديدة بذكرنس بالدقهلية

- فما الذي تفرد به بين موظفي النخبة الحاكمة لأفندينا ولي نعم ؟

- لقد كان يُمثل نموذجاً جديداً للموظف التقني المصري المولد ذو التعليم العلمي ، وهو أول مصري مسلم يتولى النظارة في إدارة يسيطر عليها الأتراك

- قد يكون ذلك هو السبب في أن مسيرته الوظيفية كانت غير مستقرة

- إلي حد كبير ، فقد شهدت حياته الوظيفية تقلبات مفاجئة تفوق كثيراً ما تعرض له الموظفون الخمسة الآخرون في النخبة الحاكمة

- بالطبع خضع هؤلاء مع مبارك لنظام مشترك للترقى والتخفيض بل وحتى الطرد من الخدمة

- بالتأكيد ولكن أحداً منهم لم يعهد الصعود السريع والهبوط الحاد الذي ميز الحياة الوظيفية المضطربة

التي عاشها علي باشا مبارك ومع ذلك كان موظفاً وفاقاً ، أيد الإصلاحات وساهم في تنفيذها بحماس

- الذي أعرفه عن علي باشا مبارك أنه رجل عجوز نحيف طويل القامة أسمر البشرة رمادي الشعر يلبس حذاءً جليداً ذا رقبة طويلة مستقلاً في أفكاره المحافظة ، وثوابته

- لقد كان يعتقد في شبابه أن الأتراك وحدهم هم الذين من الممكن أن يصبحوا ضمن النخبة الحاكمة

ومع ذلك ، أعتقد أنه كان يحلم بالوصول إلي هذه المكانة ، وكان يطمح للفوز بوظيفة حكومية لكن حتى في ذلك الحين لم يكن يتصور المرتبة التي قُدِّرَ له أن يبلغها فيما بعد

- كان بالطبع محظوظ حيث عاش في زمن أُتحت فيه المزيد من الفرص أمام المصريين

- لكنه كان يتمتع أيضاً بكفاءات ملحوظة : ذكاء حاد ولماحية ، وقدرة فائقة علي العمل ، واعتزاز شديد بالنفس واستعداد للتضحية والمخاطرة وهي مقومات كانت مهمة لنجاحه

- فماذا عن نشأته وعائلته ؟

- شغلت عائلة مبارك ، التي كانت تعرف بـ "عائلة المشايخ" ، على مدى أجيال ، وظائف الإمام

والخطيب والقاضي ، بالإضافة إلى وظائف غير دينية . وكانوا يعتبرون أنفسهم في مرتبة أسمى من

الفلاحين بفضل الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها

- مثل ماذا ؟

- مثل الإعفاء من ضرائب الأرض ، وبما يلقونه من احترام . وكان إعتزازهم بأنفسهم كبيراً لدرجة أنهم هجروا أرض أجدادهم عندما اضطر موظفو الحكومة ، علي عهد محمد علي باشا ، إلى معاملتهم مثل سائر الفلاحين لاستخلاص الضرائب ، فضربوهم وسجنوهم، وهي معاملة لم يعتادوا مثلها ، وظل والد مبارك علي هذا الحال حتى وجد القرية التي توفيه حقه من الاحترام ، فاستقر بها ، وقد كان الإعتداد بعراقة المنشأ جانباً مهماً في شخصية علي باشا مبارك طوال حياته . وحسب سيرته الذاتية ، لم يكن مبارك قد تجاوز الثامنة من عمره عندما بدأ يتطلع لحياة الثراء والقوة والمكانة غير المسبوقة في القرية . فكان يتطلع في البداية أن يُصبح كاتباً

- لماذا ؟

- لأن الكتبة يرتدون ثياباً أنيقة ، ويحظون باحترام كبير ، ومقربين من موظفي الحكومة . لكن بعد أن عاين الكتبة ، الذين لم يلق منهم الا اللعن والضرب والسجن ، تخلى عن هذا الطموح عندما علم بأمر مدرسة القصر العيني التي يُختار الموظفون من بين خريجياتها . ولإعتقاده بأن وظيفة الكاتب وضيفة وتستلزم الخضوع وتحف بها المخاطر ، صمم علي الالتحاق بخدمة الحكومة التي يُفترض أنها تحقق المزيد من الأمان

- واضح أنه كان دائم البحث عن الأمان والكرامة في بلد يعاني فيها الفلاح من الخوف والإهانة دائماً  
- عشر مبارك علي مكان المدرسة التي عقد العزم علي الالتحاق بها بأي ثمن ، وفي زيارة لأهله استأذن من مستخدمه وارتحل قاصداً إياها مباشرة ، وعندما التقى مجموعة من تلاميذ مدرسة ابتدائية حكومية (مكتب) قريبة وامتدحوا خطه وأخبروه بأن بإمكانه الالتحاق بمدرسة القصر العيني اذا ما تفوق في دراسته بالمكتب، التحق علي الفور بمدرستهم ، لكن بفضل مكيدة دبرها والده مع مدير المدرسة ، طُرد منها وعاد الى منزله ، حيث احتجب بغرفته لمدة عشرة أيام ، وكان عليه التعهد لأسرته بالتخلي عن طموحه ، لكن ما إن خففت الأسرة من رقابتها حتى فر مرة أخرى ، وبعد أن تسلل إلى المدرسة بدون علم مديرها ، صمم الصغير علي ألا يغادرها ليلاً أو نهاراً ، واخيراً جاء الوقت الذي اختاره فيه مدير مكتب الخانكة (مدرسة الأمراء) للالتحاق بالمدرسة الإعدادية . وعندما احتج والده علي هذا ، أعطى المدير لعلي مبارك حق الاختيار

- فماذا اختار ؟

- وبشجاعة اختار التعليم الحكومي بالقاهرة علي البقاء بالقرية  
- إذن لم يقم بتلبية رغبة أسرته  
- أجل ، وبعد بعض الإخفاقات الأولية بمدرسة القصر العيني ، بدأ مبارك يحصل علي درجات ممتازة وسرعان ما أُختير للالتحاق بمدرسة للتدريب المهني بالقاهرة ، وهي مدرسة الهندسة (المهندسخانة)،

حيث كان الأول على فصله ، وفي حوالي ١٨٤٤ ، قرر محمد علي باشا إرسال بعثة دراسية كبيرة الى

باريس ، وهي البعثة التي ضمت ابنه حسين وعبد الحليم ، واثنين من أحفاده هما أحمد وإسماعيل

- خديو المستقبل (أفدينا) ؟

- أجل ، وقد دُعِيَ مبارك للانضمام إلي تلك البعثة ، ويرغم الحاح صديقه الفرنسي سليمان باشا

الفرنساوي على بقائه بالمهندسخانة حيث الدرجة والراتب المضمونين قرر الذهاب للبعثة

- لماذا قرر الذهاب ؟

- لإدراكه أن الذهاب الى أوروبا بصحبة أقارب محمد علي باشا ستجلب عليه التشريف والدرجة العالية

والمعرفة . وكان علي مبارك على صواب في معظم القرارات التي اتخذها في مرحلة الشباب . فأولئك

الذين التحقوا بهذه البعثة قُدِّرَ لهم أن يكونوا قادة المستقبل. فمن بين ٨٠ شخصاً من المجموعة،

هناك ٥٥ أصبحوا من حملة البكوية أو الباشوية. وقد عقد مبارك هناك صداقات وعلاقات شخصية

استمرت طوال حياته ، وعاین مدينة قوية وحضارة جديدة لاقت في نفسه كل إعجاب

- فهل كانت هناك عقبات قد واجهته في فرنسا ؟

- بالتأكيد ، فبوصوله الى باريس ، كان عليه أن يتصدى لعدد من العقبات . فدراسته بالمهندسخانة لم

تتضمن العلوم العسكرية وقد كان التعليم بمدرسة باريس ذا طبيعة عسكرية ، ولا هو قد تعلم الفرنسية

، لغة الدراسة هناك . ولذلك ، لم يصادفه ، وآخرون النجاح في بداية عملهم ، وعندما رُفِضَ طلبهم

بتخصيص مقرر لتعلم اللغة، امتنعوا عن حضور الدروس ، وعقاباً على ما أثاروه من متاعب ، خُيِّروا

بين الإمتثال للسلطات أو العودة إلى مصر . وقد واجه مبارك مشكلته بمهارة ، فاشترى عدداً من الكتب

الفرنسية تُغطي مساحة كبيرة من الموضوعات ، وبينما استناب آخرون علّم نفسه الفرنسية . وسرعان

ما تحسنت درجاته . وبعد عامين ، أصبح هو وصديقا عمره ، علي ابراهيم وحامد عبد العاطي ( وهو

أيضاً من مدرسة المهندسخانة بالقاهرة) أوائل البعثة

- أوائل البعثة ، رائع ، فماذا كان انطباع الفرنسيون عنه وعن طبيعة شخصيته ؟

- كانت التقارير التي أرسلها معلموه الفرنسيين إلى القاهرة مشرقة ، فمما كتبوه عنه أنه أجيّ وعنيد ،

وعصي على الانضباط ، وهو شخص بحاجة إلى الإشراف الدقيق والعقاب الصارم أحيانا . لكن ذكاءه،

ومثابرتة ، وعقله "المنطقي" حاز إعجابهم وضمن له درجات ممتازة . وفي الاختبار الذي عُقد بعد

عامين ، حصل مبارك على تقدير مرتفع للغاية ، وتلقى تهاني إبراهيم باشا شخصياً ومجموعة من

كبراء الفرنسيين الذين تولوا اختباره . وبعد هذا ، انتقل مع زميليه المصريين إلى مدرسة لتخريج ضباط

المدفعية والمهندسين العسكريين . وهناك ، تفوقوا على كثير من زملائهم الفرنسيين الذين كانوا

يدرسون معهم . ففي دورة تضم ١٢٠٥ طلاب ، كان ترتيب مبارك ٦٧٩ ، ثم انتقل بعد ذلك الى

الميدان مع الجيش الفرنسي ، وخدم لمدة عام قبل أن يستدعيه عباس باشا إلى مصر عام ١٨٤٩ .

وفي خلال عام من عودته ، رُفِّي مبارك من معلم متواضع بمدرسة المدفعية إلي ناظر لمدارس الحكومة  
ومُنِح لقب (بك)

- يا له من تقدم سريع
- لم يكن هذا تقدماً سريعاً فحسب ، بل ان دلالاته تكمن في أنه كان مصرياً وتم تكريمه . وطريقة حدوث هذا شاهد على أهمية الصلات الشخصية ، وعلى مهارات علي مبارك ومرونته ، فلكي تحظى باهتمام الحاكم ، فأنت بحاجة في الغالب الأعم الى وساطة قريب أو صديق . وبالنسبة لمبارك ، فقد كان الأمير أحمد هو الذي توسط له عند الحاكم ، وعباس باشا حاكم مصر وقتئذ هو الذي استدعاه ، وعينه ، ورقاه إلى الدرجة الخامسة ، وضمه الى حاشية الخديوي ، وكان يرسله (وكذلك علي ابراهيم وحماد) الى الأقاليم لاختبار المهندسين المشكوك في كفاءتهم ، وتكشف استجابة مبارك لهذه التكاليفات عن موقف الموظفين من الاسرة الحاكمة ، وقد جاءه السعد عندما تناول القهوة في الاسكندرية مع اثنين من الفرنسيين ، هما جاليس بيبك وسليمان باشا الذي أصبح من أعز أصدقاءه
- ولكن ماذا كان موقف علي باشا مبارك من الخدمة مع عباس باشا ؟
- كان متخوف جداً من التعامل مع عباس باشا نظراً لأنه كان دائم التهديد والوعيد ، فكان يخاف علي نفسه وعلى افراد أسرته من بطش عباس باشا ، ولكن صديقه سليمان باشا طمأنه كثيراً ، ووعده بالاهتمام بعائلته ، ولك أن تتخيل قدر الهلع الذي لابد أن أصابه عندما هدده عباس بطرده وتجريده من أمواله وإجباره على ارتداء ملابس الفلاحين ، إذا ثبت عدم أمانته ، واجتهد علي مبارك في عمله كعادته وبعد أن تخلص من تعيينه في الأقاليم بنجاح ، استطاع مبارك أن يكون ذا فائدة لعباس باشا
- فماذا حدث له في عهد سعيد باشا ؟
- للأسف تم طرده من الخدمة وأصبح مديوناً ومر بظروف عصبية
- ولم كل هذا ؟
- لأن سعيد باشا اعتبره من رجال عباس باشا المقربون وقد طردهم جميعاً ونكّل بهم
- فماذا حدث له عندما تولى أفندينا الحكم ، وما هي أهم إنجازاته في عهد أفندينا ؟

### اعمال علي باشا مبارك في عهد أفندينا ولي النعم

- لما تولى أفندينا الحكم ألحق علي باشا مبارك بمعيّته ، ثم جعله ناظراً للقناطر الخيرية ، وكانت إلى ذلك الحين لم تستخدم أبوابها الحديدية المعدة لإقفال عيونها
- وما المانع الذي كان يعوق ذلك ؟
- كان المانع من إقفالها ما قرره المهندسون من أن القناطر لا تتحمل ضغط المياه قبل تقويتها ، وترتب على ذلك أن معظم المياه تحولت إلى فرع رشيد ، وخرم فرع دمياط من مرور المياه فيه ، فلما عُرض الموضوع على علي باشا مبارك أرتأى إقفال قناطر فرع رشيد ، لتغذية فرع دمياط ، فعمل أفندينا برأيه



وأمر بإقفالها ، فاندحرت المياه إلى فرع دمياط ، ونالت البلاد التي تُروى منه منافع الري وخيراته ، وأما الخلل الذي كان متوقعاً حصوله في بعض العيون بقناطر فرع رشيد فقد تلافاه علي باشا مبارك ، إذ أقام حاجز من الخشب أحاط بالقناطر ، فنشأت خلفها جزيرة من الرمل حفظتها من ضغط المياه ، وهكذا تبين صواب الرأي الذي أرتآه علي باشا مبارك ، ولما حُفرَ رياح المنوفية ، أُحيل علي علي باشا مبارك إنشاء قناطره ومبانيه ، فأقامها على أحسن وجه ، وفي سنة ١٨٦٥ ندمته الحكومة المصرية عضواً عنها في اللجنة التي أُلقت لتقدير الأراضي التي صارت حقاً لشركة القناة طبقاً لحكم الإمبراطور نابليون الثالث ، فأدى هذه المهمة خير الأداء. وفي سنة ١٨٦٧ جُعِلَ وكيلاً لوزارة المعارف العمومية (ديوان المدارس)

- ومن كان وزير المعارف في ذلك الوقت ؟
- كان يتولى هذه الوزارة شريف باشا الوزير المشهور ، فتقلد علي باشا مبارك منصبه الجديد مع بقاء نظارة القناطر الخيرية في عهده ، وبيدأ من ذلك الحين عهد جديد لعلي باشا مبارك ، إذ صار له بحكم منصبه النفوذ الكبير الذي يسمح له بإنفاذ إصلاحاته في دائرة التعليم العام . وكان من مزايا علي باشا مبارك أنه يتقن كل عمل يتولاه ، ويبذل كل ما في وسعه ليقوم به علي الوجه الأكمل
- لقد كان يعمل لصالح البلاد دائماً
- لقد كان علي مبارك مصرياً معتزاً بمصريته ، فلم يكن من أولئك الموظفين المجلوبين من الخارج للعمل في دوائر الوالي ، فلم يكن مدفوعاً للإصلاح بالاعتبارات المهنية وحدها ، وإنما كذلك بارتباطه القوي بشعب مصر وأرضها ، وبرغبة قوية في تحسين أوضاع البلاد ، وهذا الالتزام يتجاوز أي ولاء للحاكم أو الأسرة الحاكمة ، فعندما تستمع لوصفه للمعاملة البشعة التي يلقاها الفلاحون المساقون إلى السخرة ستدرك عمق مشاعره وتعاطفه معهم ، وتاريخه المهني بحد ذاته يقدم دليلاً قوياً علي التضحيات الطوعية التي تتجاوز متطلبات الالتزام المهني فقد كان وهو في ديوان المدارس يُبدي أهتماماً لا مثيل له بتحسين أوضاع التلاميذ ويهتم بكل صغيرة وكبيرة ويعلمهم القراءة والكتابة بل وحتى كيف يرتدون ملابسهم ويشرف بنفسه علي تغذيتهم كما عمل علي الحد من عقوبات الضرب وغيرها من أشكال المعاملة السيئة التي تهين الكرامة
- فهل كان يستغل المهام الرسمية خارج مصر لتحسين أوضاع البلاد ؟
- بالتأكيد فقد انتهز مثلاً ندب أفندينا إياه لرحلة مالية إلى باريس عقب تعيينه وكيلاً لوزارة المعارف ، وأخذ يستكمل معلوماته عن حالة التعليم ونظام المدارس في فرنسا ، ليقتبس ما يراه صالحاً لمصر التي يعشقها ويعشق أهلها ، ومع أن رحلته هذه لم تتجاوز خمسة وأربعين يوماً بما فيها الذهاب والإياب ، فقد أطلع علي مناهج التعليم في المدارس الفرنسية ، والكتب المقررة فيها ، ودرس أيضاً نظام الصرف الصحي والمجاري العامة المبنية تحت الأرض في باريس لنقل فكرتها إلي العاصمة المصرية .

- فهل حدث له أي مشاكل في عهد أفندينا ؟
- حدث له العديد من المشاكل بسبب اسماعيل صديق المفتش فقد كانت علاقته به سيئة وكان المفتش يكد له عند أفندينا
- لست مندهشاً من سوء علاقته بالمفتش ، فهو أكثر الشخصيات إثارة للجدل فيمن ذكرت من رجال أفندينا وخاصة لثراءه الفاحش ونهايته الغامضة ، فهل تتعطف وتحديثني عنه بشكل أكثر تفصيلاً ؟

### اسماعيل المفتش

- ولد اسماعيل صديق باشا سنة ١٨٢١ وكانت نهايته كما تعرف سنة ١٨٧٦ ، ويوصف اسماعيل صديق الضعيف البنية والمحنى الظهر قليلاً والمعقوف الأنف بالطائر الجارح ، وقد اشتهر باسم المفتش ، بسبب شغله لمنصب مفتش عموم ، وعمله ناظراً للمالية المصرية لفترات طويلة ، ومن خلال شغله لهذين المنصبين القويين كَوّن ثروة كبيرة
- ولكن كيف كانت ملابس هذه الأخوة في الرضاعة ؟
- كانت الوالدة باشا خوشيار هانم زوجة الوالي إبراهيم باشا حينئذ قد شعرت بجفاف ألبانها بعد ولادة طفلها اسماعيل فسأقت إليها الأقدار فلاحه مصرية لتتولي إرضاع الوليد مع ابنها الذي أطلقت عليه إسم الأمير تبركاً وتقرباً فنشأ الصبي في دهاليز القصور الخديوية ، يتقلب في أعطاف النعيم ، وينهل من ينابيع العز
- كان من الطبيعي أن تنشأ بين الطفلين عاطفة مشتركة
- هذا صحيح بل وامتدت هذه العاطفة عبر السنين ، فقام الأمير اسماعيل بدفع أخيه لينال وظائف محترمة وأنعم عليه بالأموال وجعله يتدرج في المناصب رويداً رويداً وعندما اعتلى أفندينا عرش مصر أطلق يد أخيه ومنحه الكثير من الصلاحيات والنفوذ
- وهل أقام اسماعيل صديق شبكة كبيرة من العلاقات الشخصية ؟
- بالتأكيد وهذه الشبكة مكنته من التدخل في حياة الكثيرين من الموظفين ، فمثلاً كانت مساندة لمحمد سلطان سبباً في تدعيم مركزه ، بينما كانت معارضته لعلي مبارك سبباً في تدهور مكانته الوظيفية ، وكانت كل مؤهلات اسماعيل المفتش أن أمه أرضعت أفندينا فشغل منصباً كبيراً في وقت يشغل فيه الأتراك معظم هذه المناصب ، لكنه علي عكس غيره من الموظفين المصريين لم يكن من أعيان الريف بل كان ابن لفلاح بسيط
- ولم تبدأ حياته الوظيفية بالدواوين الإقليمية مثل سلطان باشا ، أو الدواوين المركزية مثل علي باشا مبارك ؟

- نعم ، بل أيضاً لم يتلق أي تعليم رسمي ، ولم يتعرف علي الأساليب الأوروبية ، ومع ذلك أصبح واحداً من أكثر موظفي مصر ثراء ونفوذاً ، فقد كان الموظف الكبير الوحيد الذي لم يعرف الطرد من الخدمة ، كما كان يتمتع بقدر كبير من الحرية في تصريف عمله
- لقد كان مجرد ذكر اسمه يثير الخوف والحقد بين المصريين ، هل تعرف يا باشا متي تحديداً التحق بخدمة أفندينا ؟
- أعتقد أن صعوده الوظيفي قد تحقق قبل أن يتولي أفندينا الحكم وأثناء كونه أحد أمراء الأسرة الخديوية ، ففي سنة ١٨٥٣ علي ما أذكر التحق بالعمل بالدائرة السنّية ، وهي الجهة المسؤولة عن إدارة ممتلكات الأسرة الخديوية ، فعمل مفتشاً في عدة مناطق ثم حصل علي الرتبة الثانية ومُنح لقب بك ، وُرقي إلي مفتش عموم الدائرة السنّية
- ومتي كان ذلك ؟
- حوالي سنة ١٨٥٨ ، وهو المنصب الذي ظل يشغله حتي تولي أفندينا ولي النعم حكم مصر ، فصل علي ترقية كبيرة سنة ١٨٦٣ وترقي إلي الرتبة الأولى ومُنح لقب باشا وعينه أفندينا مفتشاً لعموم الأملاك الخديوية ثم مفتش عموم
- وهو المنصب الذي اشتهر به ؟
- نعم فالناس تعرفه باسماعيل المفتش ، وفي منتصف عام ١٨٦٧ احتل اسماعيل صديق المفتش مكانه في المعية السنّية ، التي تتولي حكم البلاد في غياب أفندينا ، وبعد ذلك بعام تم إسناد نظر ديوان المالية إليه
- وهنا بدأ توريط أفندينا بل والبلاد كلها في الديون علي يديه بشكل غير مسبوق
- حسناً ، أعتقد أنه كان يُشجع أفندينا علي الإنفاق بغير حساب ويدبر له أي أموال يحتاجها بغض النظر عن أي شئ وكان أفندينا يثق فيه كل الثقة ويمنحه صلاحيات كبيرة ، جعلته من أقوى الموظفين في البلاد
- فهل كانت لمواهبه دخل فيما وصل إليه ؟
- أنت تعرف يا محمود بك أن الموهبة ليس لها أهمية كبيرة ما لم يكن صاحبها قريباً من الحاكم ، ومع ذلك فقد كان موهوباً بالفعل وعلي قدر كبير من الذكاء ، وكان يتمتع بميزة نادرة لكونه أخواً لأفندينا في الرضاع ، وقد توطدت أواصر علاقته بولي النعم بعد زواجه من إحدى عتيقات إبراهيم باشا والد أفندينا ، كما تزوج ابنه من ابنة أفندينا المتبناه
- فماذا كان رأي الأوروبيون فيه ؟
- كانوا يكرهونه وفي نفس الوقت يقرون بذكائه وقدراته ، ويقول عنه أحدهم أنه رجل لا يعرف إلا مصالحه الأنانية ، لكنه يعترف له بالذكاء الفطري ، بينما قال عنه آخر أنه بارعاً ونشيطاً

- لقد سمعت عنه أنه يتميز بذكاء مرن قادر علي التكيف السريع مع المستجدات
- بل وقدرته الخارقه علي اكتشاف الجديد من السبل لتحقيق رغبات أفندينا ولي النعم ، وهي المهمة التي أنجزها علي الوجه الأكمل فكانت له مهارة خاصة في التعامل مع المفاوضات المالية حتي المضيئة منها والمعقدة ، فكان المعاون الأساسي لأفندينا في الأمور المالية
- فهل كان يقدم لأفندينا الأفكار لزيادة الأموال عن طريق القروض والضرائب ؟
- بالتأكيد بل ويسافر إلي الخارج نيابة عن أفندينا ويقدم لدائني مصر ميزانيات زائفة ، فأصبح ماهراً لا تعوزه الحيل في صفقاته المالية ، ولولاه -كما صرّح أفندينا نفسه- لتعسرت إدارة مالية مصر
- ألهذا الحد كانت ثقة أفندينا فيه ؟
- بلي ، يا محمود

### المفتش أصبح عين أفندينا وأذنيه

- فهل اختص بموقف الأموال فقط ؟
- لا بل تعدي ذلك بكثير ، فبعد تعيينه مفتش عموم صدرت الأوامر لموظفي المديرية التابعة له بعرض كل ما يتصل بأقاليمهم عليه بدلاً من عرضها علي أفندينا فيقوم بفحصها ثم عرضها بنفسه علي أفندينا
- وهكذا أصبح اسماعيل باشا صديق (المفتش) هو الواسطة التي تنقل للمديرية القرارات الخاصة بالتعيين والفصل
- أجل ، وكذلك إعادة تنظيم هذه المديرية وتقرير الأموال اللازمة لها ، وكان يتولي رفع شكاوي الرعية إلي أفندينا
- سمعت أن إحدي هذه الشكاوي قد تلقاها أفندينا بعد عام كامل من تقديمها
- علي أي حال ، لم يكن اسماعيل صديق المفتش مجرد وسيط بين أفندينا والمديرية بل كان أيضاً المكتشف للعديد من الحيل لإشباع نهم أفندينا الذي لا يشبع من الأموال ، فبحكم كون صديق مصرياً بين كبار الموظفين الأتراك كان علي دراية بحيل أهل البلاد للتهرب من الضرائب
- وبالتأكيد مكنته خدمته الطويلة في الأقاليم من التعرف بدقة علي موارد البلاد المالية وتقييم ثروته وثروات غيره من أعيان الأقاليم
- أجل ، وهكذا ارتبط اسمه بكل الحيل الماليه التي استحدثها أفندينا ، وهو الذي اخترع ضريبة (المقابلة) وغير ذلك من أخس الوسائل لإرواء عطش أفندينا
- إذن فقد عرف اسماعيل صديق جيداً كيف يحصل علي الأموال لتحقيق رغبات أفندينا ورغبات نفسه فلا تثريب عليه أن يقتطع لنفسه نصيب الثعلب ، ما دام أن نصيب الأسد مصون ومحفوظ ويواصل به

أفندينا سياسته في البذخ والظهور أمام الأجنبي بمظهر الفخخة والعظمة ، ولو كانت خزانة البلاد أظهر من قلب المؤمن

- المشكلة في أن أفندينا كان يغمض عينه عن وسائل الحصول علي الأموال ، علي أن من الخطأ الاعتقاد بأن حرية التصرف غير العادية التي أُتيحت للمفتش نأت به عن أعين أفندينا أو جعلته فوق المحاسبة ، فقد كان أفندينا يتابع عمله عن كثب ، وكان دائماً يحذره من الإقدام علي أشياء أو ينصحه بعمل أشياء ، فعندما كان يتجاوز الحد لم يكن ذلك يمر دون توبيخ عنيف أو ما هو أسوأ
- وعلي الرغم من ذلك استطاع اسماعيل صديق استغلال منصبه العالي والسلطات الممنوحة له في تأسيس نفوذ غير مسبوق بين أصحاب الوظائف العليا
- لا شك في ذلك بالطبع ، ولأسف قد شمل هذا النفوذ كل مواقع الإدارة فقد كان يتدخل في أمور دواوين الحكومة الأخرى ، وأصبح المنافس الأول لنوبار باشا الذي كان هو الآخر ذو نفوذ لا يُستهان به ، وكان اسماعيل صديق له نفوذ في الأقاليم غير عادي فكانت مسانده لا غني عنها للفوز بالمنصب والاستمرار في شغله
- لقد سمعت أيضاً أن في انتخابات مجلس شوري النواب كان دعمه ضرورياً لنجاح المرشح المحلي
- بالطبع ، بل أهم ما يلفت النظر يا محمود بك أنه انتهز الفرص التي أُتيحت له لتكديس الثروات علي نطاق لم يعرفه إلا أفندينا نفسه ، وكان بذخه حديث القاهرة ، فكان الناس يتحدثون عن قصوره التي تضم المئات من الغرف الموثثة بالأرائك الفرنسية التنجيد ، والستائر الستان ، وأحواض الغسيل المصنوعة من الفضة ، وكانت ملابسه ومجوهراته وقصوره الباذخة موضع حسد نساء حريم أفندينا نفسه ، وكان الأمراء ساخطون لكونه فلاح مصري يعيش يعيش عيشة الأمراء ، ويقال أن ثروته قُدرت بين اثنين وثلاثة ملايين جنيه مصري
- فهل يمكنك يا باشا أن تخبرني بمصادر ثروته الضخمة بشئ من التفصيل ؟
- لقد حقق اسماعيل المفتش ثروته بأكثر من طريقة ، فقد أعدت له سجلات خاصة لا تظهر في السجلات العامة وكانت كثير من الأموال التي حصل عليها في صورة إتاوات وعمولات عن عقود مع شركات مقاولات ومصارف أوروبية ، كما كان يتلقي مبالغ سائلة كبيرة من ولي النعم ، لكن يبدو أن الاختلاس والإغصاب كانا المصدر الرئيس للثروة ، فيقال أنه كان يتباهي علنا بإغصابه مبالغ كبيرة دون أن يظهر هذا في الميزانيات التي كان يقدمها ، وكان يحصل علي رشايي كبيرة من أعاونه في الأقاليم ، ويقال أنه حدد مقدار الرشوة المطلوبة لشغل كل وظيفة ، وكان يستثمر أمواله في العقارات والأراضي وكانت الأراضي الزراعية التي بحوزته من أخصب الأراضي وتقع علي الترع الكبيرة
- فكيف كانت نهايته ؟

## نهاية المفتش

- بعد ظهور تباشير الإفلاس علي أفندينا أمسكت البنوك الأوروبية يدها عن إمداد أفندينا بالقروض لعدم ضمان استعادة أموالهم ، فلم يعد أمام أفندينا إلا أن يستدير إلي الداخل
- ليفتك بالمصريين ويسطو علي ما في أيديهم من مدخرات قليلة جمعوها من شقاء العمر ؟
- علي أي حال كان ذلك يحتاج إلي جيش كبير من زبانية السلطة ورجال الإدارة ، ليتعقبوا الفلاحين في عقر دارهم ، ويستخرجوا ما لديهم من أموال عن طريق القمع ، وكان المفتش يمتلك هذا الجيش بحكم عمله وخبرته ومنصبه القديم كمفتش عام لعموم القطر ، وبدأ المفتش ومن ورائه جهازه الإداري يحط علي قري مصر فيسلبها المال والزراد ولا يتركها إلا قاعاً صفصفاً تضج بالأتين
- لقد كانت جريمة كبري ارتكبتها المفتش وأعوانه في حق الفلاحين
- إن جرائم المفتش التي ارتكبتها كثيرة ولكن في تقديري أن الجريمة الكبرى التي ارتكبتها في حق البلاد هي إيعازه لأخيه ولي النعم ببيع نصيب مصر في أسهم شركة قناة السويس وكان هذا النصيب يقارب النصف ، مقابل مبلغ يقل عن أربعة ملايين جنيه ، وهو الذي فاوض القنصل البريطاني في الصفقة ، وهو الذي وضع خاتمه علي الأسهم قبل أن يتسلمها القنصل ، ويودعها قاع سفينة كانت في طريقها إلي إنجلترا
- وكانت تلك بداية الطريق المشئوم الذي انتهى بضياع استقلال مصر المالي ؟
- أجل ، وخضوعها للإشراف المباشر من جانب الحكومة البريطانية ، وكانت صفقة الأسهم آخر سهم في جعبة الوزير المحتال ، ولكنها كانت آخر مسمار في نعشه
- وكيف ذلك ؟
- فما إن وصل الخبراء الإنجليز إلي القاهرة لإصلاح مالية مصر ، حتي كان أول مطالبهم إقصاء المفتش عن منصبه الخطير
- سبحان الله ، مع أنه هو الذي عقد معهم صفقة أسهم القناة
- ولكنه بتصرفاته غير المسئولة قد يعوق إجراءاتهم كما أن دوره قد انتهى
- ولكن التخلص من شخص مقرب من الحاكم ويعرف جميع أسراره ليس بالأمر السهل
- لذلك تحير أفندينا ووجد نفسه أمام خيارين أحلاهما مر ، ولكن كان عليه أن يضحي بأخيه كي ينجو بنفسه
- علي أي حال كانت مصر بكل طبقاتها -فقراء وأثرياء وأمراء- تغلي بالنقمة علي اسماعيل صديق باشا (المفتش) ، ويتحينون الفرصة للفتك بهذا الجبار الذي يتحكم في مصائر البلاد والعباد ، وتسبب في إفلاس مصر وتجريدها من القناة ، كان مثل هامان في طغيانه وسطوته واستهتاره ، وكان أشبه بقارون في جشعه وطمعه وزهوه ، وكما سقط هامان وقارون وفرعون ، كان لابد أن يسقط المفتش



- بالتأكيد ويلقي نفس المصير الذي لاقاه الطغاه والجبابرة ، فلا نفعتهم أموالهم ، وإنما مضوا غير مأسوف عليهم ، لم يخلفوا وراءهم إلا أسوأ الذكريات ، لعل الناس تتعظ وتعتبر عندما تقرأ سيرتهم
- علي أي حال كان علي أفندينا أن يصدر مرسوم لحماية مصالح الدائنين الأجانب ، فأصبحت الهيمنة علي مالية مصر من حق الدائنين ، وأعلنت الرقابة الثنائية من إنجلترا وفرنسا ، فتولي الرقيب الإنجليزي الإشراف علي إيرادات الدولة ، وتولي الرقيب الفرنسي الإشراف علي مصروفاتها
- يا للعار الذي وصلنا إليه بسبب السفه والفشخرة الكذابة ، إن احتفالات افتتاح قناة السويس أشبه بالنسبة لي برجل قام ببيع محل لينفق علي حفل افتتاحه
- المهم ، أن المستر جوشن الرقيب الإنجليزي عندما قام بمراجعة الميزانية لم يجدها ميزانية بالمعنى المعروف بل وجد المسألة لا تعدو أن تكون (ضیعة) خاصة يتحكم فيها أفندينا وأخوه ، وأن الأخوين يقتسمان الأسلاب ولذلك رأي أن يبدأ بإزاحة أصغرهما ولم يكن من اليسير علي أفندينا أن يستجيب لهذا المطلب لأنه يعرف جيداً أنه شريك أصيل في كل ما ارتكبه المفتش من كوارث ، وإذا كان الإنجليزي يتعدون بالمفتش عند الظهر فسوف يتعشون بأفندينا في المساء ، فامتنع عن طرده ، عندئذ هدد الإنجليزي بتقديم المفتش إلي المحاكمة بتهمة اختلاس ٤٠ مليون جنيه وجدوها في الدفاتر ، وهنا فقط اقتنع أفندينا بجذوي اختفاء المفتش لأن محاكمته المفتش ستفضح الكثير
- ما المقصود هنا بكلمة اختفاء ؟
- اختفاء المفتش من الحياة كلها ، وليس من الوزارة فحسب ، فقد كان يعلم أن أخاه لن يتورع عن كشف كل الأوراق وفضح المستور
- وبالتالي إظهار حقيقة أفندينا الذي تسبب في تخريب بلده ووضعها في هاوية الإفلاس
- لقد نسي أفندينا كل ما فعله أخوه من أجله ، ولم يفكر إلا في النجاة بنفسه ولمعت في ذهنه علي الفور فكرة التخلص من الرجل الذي أفني حياته في جمع المال من أجله وبني مجده علي أشلاء البؤساء والمعذبين
- وكيف تم التخلص منه ؟
- كان أفندينا قد اتخذ قراره النهائي بالتخلص من أخيه في الرضاع اسماعيل صديق باشا (المفتش) ، قبل أن يفلت لسانه ويفضح المخازي التي ارتكبتها الاثنان ، وتسبب في خراب خزانة مصر ، وتم ترتيب وسيلة الإعدام على النحو الذي كان متبعاً في ذلك العصر ، ففي صباح اليوم الموعد ، استدعي أفندينا أخاه المفتش إلى قصر عابدين ، ليصاحبه في نزهة خلوية على ضفاف النيل ، وركب الاثنان العربة الخديوية المكشوفة على مرأى من الجميع ، وهم يتضحكان ، وقد اعتبر المفتش هذا الرضاء السامي أكبر دليل على كذب الشائعات التي ترددت عن قرب نهايته ، وعبرت المركبة كوبري قصر النيل في اتجاه قصر الجزيرة . فلما توقفت أمام بوابة القصر ، تقدم الحرس فألقوا القبض على المفتش ،

وساقوه الى الداخل وهو يصيح مستغيثاً بأخيه الذي عاد وحده إلى قصر عابدين . واستدعى أفندينا المجلس المخصوص ، واستصدر منه قراراً بإبعاد المفتش إلى دنقله بالسودان . وألقى الحرس بالمفتش الى إحدى غرف السفينة الراسية علي النيل والتي أقلت باتجاه الجنوب . وتم الإعدام بواسطه اسحاق بك وكان رجلاً تركياً متخصصاً في الإجهاز على ضحاياه بطريقة فظيعة ، فقد كان يملك قبضتين فولاذيتين ، فيهجم باليسرى على فم الضحية ليكتم أنفاسه بينما يقبض باليمنى على الخصيتين فيعتصرهما اعتصاراً حتى يلفظ أنفاسه

- أسائل ، ثري كيف كان الحديث الذي دار بين أفندينا وأخيه في العرية وهما ذاهبان إلي القصر ؟ هل منحه أفندينا وجهاً ينطق بالبشر والود كالعهد به ؟ هل لمست يده يد فريسته أو كتفه بحنان وود ؟ هل تثبتت نظرتة علي عين رفيقه ولو برهة خاطفة ؟ هل أحس أفندينا بحقارة مسلكه ؟ أن يتولي هو بنفسه اصطياد ضحيته بالغدر والخيانة ؟

- ربما يكون دليل إشفاقه بأخيه أن لا تأتي الطعنة إلا من يده لا من يد غريب  
- ولكن هل رضي أفندينا عن نفسه وأعجب بها لأنه أتقن تمثيل دوره ؟ وهل نام ليلته غير مؤرق أم ظل شبح أخيه يطوف به ؟

- عموماً يا محمود بك لقد انتهت أسطورة المفتش وصادر أفندينا كل ثروته وتتبع أعوانه في كل مكان ولم يبق منهم أحد ، ولا أدري ماذا سيكون مصير أفندينا ولي النعم

### أفندينا يرتمي في أحضان الشعب

وبينما استمر اللقاء الأسبوعي بين محمود بك حسن ومظهر باشا كانت هناك مؤامرة يقوم بها الوزيران الإنجليزي والفرنسي لإعلان إفلاس مصر واحتلالها وهو ما وافقتهما عليه باقي الدول الأوروبية ولكن شريف باشا واسماعيل راغب باشا والسيد علي البكري نقيب الأشراف والشيخ حسن العدوي وغيرهم فهموا أبعاد المؤامرة وتواصل زعماء الشعب لإنقاذ البلاد من هذا المصير ، فاجتمع مجموعة من زعماء الشعب الوطنيين ومنهم أعضاء من مجلس شوري النواب واستمرت اجتماعاتهم لعدة مرات حيث بدأ الحديث شريف باشا قائلاً :

- لا يخفي علي أحد منكم ما تقوم به إنجلترا وفرنسا لإعلان إفلاس البلاد والسيطرة عليها ، وأفندينا ليس في وضع يسمح له بمعارضتهما ، وبالتالي لابد لنا كقادة وممثلين لهذا الشعب أن نقف موقفاً قوياً لإنقاذ البلاد

فقال اسماعيل راغب باشا :

- لابد من كتابة لائحة وطنية ونوقع عليها جميعاً تضمن سداد جميع الديون شريطة أن يقوم نواب الشعب بالسيطرة علي ميزانية البلاد وتحديد أوجه الصرف المختلفة

فقال شريف باشا

- إن مصر قادرة علي سداد ديونها مع الحفاظ علي كرامتها وسمعتها أمام العالم ، وإن المجلس النيابي الذي رأي النور في عام ١٨٦٦ - وولد بدون سلطات فعلية تعطيه حق المشاركة والرقابة علي مقدرات البلاد - لابد له أن ينمو وينضج ويطالب بمحاسبة الحكومة علي كل قرش تنفقه  
فقال الشيخ حسن العدوي

- لقد كان أفندينا يتباهي بهذا المجلس أمام الأوروبيين كمجلس نيابي مثل مجالسهم ولكنه أبداً لم يكن مثل مجالسهم النيابية التي تحاسب الحكومات ، إن ممثلي الشعب يعرفون جيداً كيف يقوم الشعب بسداد ديون لا ذنب له فيه وسيقومون بتحديد أوجه الإنفاق طبقاً لمصالح الشعب فقط  
وفي نهاية هذه الجلسة قاموا بكتابة اللائحة الوطنية ووقع عليه العشرات من مجلس النواب والتجار والأعيان والعلماء والضباط والموظفين العاملين والمتقاعدين

كما وقّع عليها شيخ الأزهر وبطريك الأقباط وحاخام اليهود وحمل شريف باشا اللائحة وتوجه بها مع وفد من الزعماء إلي قصر عابدين يوم ٧ إبريل ١٨٧٩ فقابلهم أفندينا ورحب بهم ورأي أن الإرتماء في أحضان الشعب والتنازل له عن الصلاحيات وتحمل الشعب مسئولية البلاد وإقرار ميزانياتها هو الحل الوحيد كي ينجو بنفسه من مؤامرات الإنجليز والفرنسيين ، واستمع أفندينا لما في اللائحة وناقشها معهم ثم طلب من شريف باشا تولي رئاسة الحكومة وقال له :

- إني بصفة كوني مصرياً وحاكماً للبلاد ، أري من الواجب عليّ أن أتبع رأي الأمة وأقوم بأداء ما يليق بها من جميع الأوجه الشرعية ، لكنني لما نظرت السير الذي كانت عليه النظارة السابقة حصل لي غاية الأسف من أن ذلك السير كان علي غير رضا الله والأهالي ، حتي نشأ عنه اضطراب ونفور سري في جميع القلوب وحركها ، وزيادة علي ذلك فإن النتيجة التي حررها ناظر المالية الإنجليزي وأظهر بها أن القطر في حالة إفلاس كانت سببا في تغير قلوب الأمة ، لقد وكلتكم بتشكيل هيئة النظارة من أعضاء أهليين مصريين ، مكلفين بالمسئولية لدي مجلس الأمة الذي سيجري انتخاب أعضائه وتعيين مأموريه بوجه كاف للقيام بتأدية ما يلزم للحالة الداخلية ومرغوب الأمة نفسها ، هذا ولعلمي بحسن إخلاصكم لخدمة الوطن فلا أشك في أن تستعينوا بالرجال المشهود لهم مثلكم بالأمانة والاحترام لدي الجميع  
وشكر شريف باشا أفندينا علي ثقته الغالية وغادر قصر عابدين وتوجه للقاء زعماء الشعب وقام بسلسلة مشاورات لاختيار أعضاء الحكومة الجديدة

وعندما اكتمل المجلس دار حوار بين زعماء الشعب حيث قال شريف باشا :

- كما رأيتم وسمعتم بأنفسكم ، إن أفندينا قد رأي أن واجباته اتباع رأي الأمة ، وأنه لم يكن راضياً عن الوزارة المستقيلة لمخالفتها إرادة الأمة  
فقال أحدهم :

- مما هو جدير بالإعجاب إشادة أفندينا بمصريته ووطنيته

- الذي يجب أن نستعد له هو مواجهة غضب دول أوروبا بسبب ما حدث لأنهم بالتأكيد لن يقبلوا بوجود وزارة وطنية خالية من وزراء أجنب

وحدث بالفعل ما توقعه شريف باشا إذ بمجرد انتشار أخبار ما حدث توجه العديد من قناصل الدول إلى قصر عابدين وأعلنوا رفضهم القاطع للائحة الوطنية ووصل الأمر من بعضهم بتهديد أفندينا بالعزل من منصب الخديوية إذا لم يتم إعادة الوزيرين الأجنبيين للوزارة

وقام شريف باشا بالتهديد بالاستقالة إذا تم عودة الوزيرين والذي يبدو للوهلة الأولى مثيراً للعجب والغربة أن ترفض الدول الأوروبية المسلك الجديد الذي سلكه أفندينا وهو ارتماؤه في أحضان الشعب ، وقبوله مبدأ المشاركة الوطنية في إنقاذ البلاد من إعلان إفلاسها ، ولكن الذي يتأمل بعمق ما حدث فلن يشعر بالدهشة فالحقيقة المرة أن إنجلترا توجست خيفة من التطورات التي جرت علي مصر ، وخشيت من تلك الروح الجديدة التي بدأت معالمها في تدفق الدماء الوطنية في شرايين الحياة المصرية ، وظهور زعامات وطنية تتحمل المسؤولية ، وتبدي استعدادها للمشاركة في تسوية أزمة الديون

هذا هو السبب الحقيقي الذي أثار مخاوف إنجلترا -أم الديمقراطية- وجعلها تسعى منذ مشروع اللائحة الوطنية إلي خلع أفندينا وطرده من مصر ، قبل أن يتحول إلي رمز وطني ، وبدأت إنجلترا تسابق الزمن قبل أن تتطور الحركة الوطنية في مصر إلي الدرجة التي تفسد خطتها الدفينة لاحتلال مصر ولكن أفندينا لم يكثر لكل التهديدات التي تعرض لها من وكلاء وقناصل الدول فقد كان يعتقد أن السلطان العثماني لن يقوم بعزله ولن يرضخ لضغوط الدول الأوروبية ولكن كان السلطان ودولته في أضعف حالاتها فلم يصمد كثيراً أمام الضغوط

### أفندينا يستعد للرحيل

قرر أفندينا جس نبض السلطان ومعرفة موقفه من كل ما يحدث ، فأرسل مبعوث خاص إلي عاصمة الدولة العلية ، وهو طلعت باشا وحمله بما أمكن جمعه من هدايا وثحف في تلك السنين العجاف وطال انتظار أفندينا لطلعت باشا فقد تأخر عن الميعاد الطبيعي والمتوقع للعودة ، مما جعل أفندينا يشعر بالقلق وأدرك أنه معزول لا محالة ، وبدأ يهيئ نفسه للرحيل ، ويختار من حريمه أقربهن إلي قلبه ، وجمع من كل حريمه ما كان معهن من مصاغ وخلي ، واستدعي عدد من الصاغة وأقاموا بقصر عابدين يشتغلون ليلاً ونهاراً في نزع الحجارة والفصوص الكريمة ليسهل نقلها والتصرف فيها ، وجرّد سراي عابدين من كل رياشها الثمينة والآنية الذهبية واللوحات الفنية والنحف الفضي والطنافس القديمة التي كانت ملكه الشخصي ، لا ملك الحكومة ، وأرسل جميع ذلك في صناديق مغلقة إلي الإسكندرية ، حُملت علي ظهر اليخت (المحروسة) تحت حفظ حراس مؤتمنين

وفي تلك الأثناء كانت الدول الأوروبية قد نجحت في الضغط علي السلطان العثماني وأجبرته علي إقصاء أفندينا الخديو إسماعيل باشا عن أريكة مصر ، وتعيين ابنه (محمد توفيق)

### عزل ولي النعم :

وفي صباح يوم ٢٦ يونيو ١٨٧٩ أبرق سفير إنجلترا في الآستانة بأن الإرادة السلطانية قد صدرت بعزله ، وفي ضحي نفس اليوم تلقى زكي باشا (السرتشريفات) برقية محررة باللغة التركية ومرسلة إلي (اسماعيل باشا خديو مصر سابقاً)

وكان زكي باشا جالساً في مكتبه بالدور الأرضي من قصر عابدين وتصادف وجود خيرى باشا (المهمندار) حامل الأختام السنية ، وعدد من كبار رجال القصر ، وأسقط في أيديهم جميعاً ، وعلا الاصفار والاضطراب جباههم جميعاً وثاروا ماذا يفعلون

وكل منهم يرفض أن يكون حامل البرقية المشنومة إلي ولي النعم وهو يتربع علي كرسي العرش في الدور العلوي ، وحاولوا إقناع خيرى باشا بالقيام بهذه المهمة لأنه حامل الأختام إلا أنه رفض بإصرار وبينما هم يتجادلون دخل عليهم شريف باشا رئيس الوزراء فسلموه البرقية ، فتردد بعض الشئ ، إلا أنه بصفته وزير مصر الأكبر ، فمن واجبه أن يقوم بالتبليغ ، ولم يكن بالرجل الذي يحجم عن مثل هذا العمل مهما كان شاقاً

حمل شريف باشا البرقية وصعد إلي الطابق العلوي ، وفض البرقية وهو في الطريق فإذا نصها : (إن الصعوبات التي نجمت أخيراً في أحوال مصر الداخلية والخارجية ، بلغت مركزاً عسيراً ، وقد ينتج عن استمرارها كما هي خطر لمصر وللدولة العثمانية ، ومن أهم واجبات الحكومة السلطانية إيجاد الوسائل لتقرير الطمأنينة والأمن والرفاهية بين الأهالي ، وإنما صدرت الفرمانات لهذه الغاية عينها ، فيما أنه قد ثبت أن بقاءكم في منصب الخديوية لن ينجم عنه سوي مضاعفة الصعوبات الحالية ، وزيادة خطورتها ، فجلالة مولانا السلطان بناء علي تداول مجلس وزرائه ، قرر تعيين صاحب السعادة محمد توفيق باشا في منصب الخديوية ، وأصدر إرادته الهمايونية بذلك ، وقد أبلغ هذا القرار السامي إلي سعادته بإشارة برقية علي حدة ، وعليه فإني أدعوك إلي التخلي عن شئون الحكم طبقاً لأوامر جلالة السلطان )

وأخذ شريف باشا يفكر ويحدث نفسه ، ويتسائل عن سر عزل أفندينا في هذا التوقيت بعد أن خضع لإرادة الشعب وسلمه المسئولية كاملة ، إن إنجلترا ومن وراءها الدول الأوروبية رفضت بإصرار أن يملك الشعب إرادته وأن يسد ديونه ويتحكم في قراره ويحدد مساره ومصيره

لقد أيقن شريف باشا في هذه اللحظة أن النظام الدستوري والديمقراطية والحياة النيابية قد وضعها الغرب لأنفسهم فقط وليس لشعوبنا نحن ، فمن حقهم هم فقط ومن حق شعوبهم أن تنعم بالديمقراطية والحياة الدستورية ، أما شعوبنا فيجب أن تظل مستعبدة ذليلة مديونة يحكمها الطغاة وحاشيتهم

وينعمون بخيرات البلاد وحدهم دون شعوبهم ، لقد أدرك شريف باشا وتأكد من السبب الحقيقي لعزل أفندينا ، فمن المؤكد أنه سار بشعبه في المسار الصحيح بل الأصح أن نقول أنه ترك لشعبه اختيار المسار الصحيح ، وأخذ شريف باشا يردد بينه وبين نفسه : لقد جعلوا من الرجل بطل قومي ، إنهم بعزله في هذا التوقيت قد حولوه من حاكم مستهتر غير مسئول إلي بطل قومي

### أفندينا بطل قومي ولكن بعد فوات الأوان

وتقدم شريف باشا من أفندينا علي استحياء ، وقدم إليه البرقية فقرأها ، وكأنه يعرف ما فيها ، أو يتوقع هذه النهاية ، فهي نهاية محتومة لمن يتحدي الغرب ويسلم لشعبه إرادته وحريته ، ولكنه لم يندم علي تصحيح المسار حتي ولو في آخر لحظة من حكمه فهو يعرف جيداً أن الأوان قد فات وأنه هو الذي منح أوروبا السيف الذي قضاوا به عليه بل وعلي أحلام الشعب كله ، ولقد رضوا بابنه توفيق الضعيف الذي سيصبح العوبة في أيديهم وسوف يكون السبب في احتلال مصر عسكرياً يوماً ما بلا شك ، ثم أفاق ولي النعم من أفكاره الحزينة اليائسة واستمر في قراءة البرقية وبعد أن فرغ من قراءة البرقية التفت إلي شريف باشا وقال له :

- أذع سمو توفيق باشا حالاً

فخرج شريف باشا وامططي مركبته وتوجه إلي قصر الأمير توفيق ، فوجده علي وشك الركوب متجهاً إلي قصر عابدين ، فترك شريف باشا مركبته وركب بجوار الخديو الجديد وعاد معه إلي عابدين وفي صمت قام توفيق باشا بتسليم برقية التكليف التي وصلته لشريف باشا فقرأها شريف ثم قال :

- إن المناداة بسموكم خديوياً علي مصر ، المنصوص عليها في تلك الإشارة التلغرافية يجب أن تتم بعد ظهر اليوم في قلعة الجبل

ولما وصلا عابدين بقي شريف باشا في الدور الأرضي وصعد توفيق إلي حيث كان أبوه في انتظاره ، وحالما دخل الغرفة التي كان ولي النعم جالساً فيها بصحبة أفكاره وشجونته مذ تركه شريف باشا ، ووقعت عين والده عليه نهض ولي النعم وتقدم للقياء وأخذ يده ولثمها قائلاً :

- إني أسلم علي أفندينا

ثم قبّله علي وجنتيه ، وتمني له أن يكون أوفر حظاً وأكبر سعادة من أبيه ، وبعد ذلك انحنى أمامه ، ودخل دائرة حريمه تاركاً لابنه المتأثر تأثراً عميقاً منصبه وقاعة عرشه ، ولما كانت المناداة السريعة بالخديو الجديد شيئاً مرغوباً فيه ، اتقاء لكل طارئ ، تم تنصيبه بالقلعة وقراءة الإرادة السلطانية علي الجميع ، فدوت المدافع من القلعة كالرعد معلنة لمصر والقطر كله أن (محمد توفيق) أصبح دون غيره خديو مصر وأفندينا وولي النعم

تمت



## مراجع ومصادر الرواية

(ولي النعم) عبارة عن كتاب تاريخ عن عصر الخديو اسماعيل ولكن متنكر في صورة رواية تتضمن حوار بين شخصين من خيال الكاتب ولكنهما يتحدثان عن أحداث تاريخية حقيقية نقلاً عن المراجع والمصادر الآتية :

كتاب عصر اسماعيل ج ١، ج ٢- عبد الرحمن الرفاعي

كتاب مصر من تاني - محمود السعدني

كتاب هؤلاء حكموا مصر - حمدي عثمان

كتاب مدينة القاهرة من ولاية محمد علي إلي اسماعيل ١٨٠٥-١٨٧٩ - د محمد حسام الدين اسماعيل

كتاب تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا - إلياس الأيوبي

كتاب تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلي اليوم - تأليف محمد صبري - الطبعة الأولى - مطبعة دار

الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٦

كتاب (صفحات من تاريخ مصر) الأستاذ يحيى حقي

كتاب (ضرب الإسكندرية في ١١ يوليو) بقلم عباس محمود العقاد - الطبعة الثانية ١٩٨٣

كتاب (محمد علي وأولاده) تأليف جمال بدوي

كتاب (مصر من نافذة التاريخ) تأليف جمال بدوي

كتاب (مصر الخديوية - نشأة البيروقراطية الحديثة) تأليف ف روبرت هنتر - ترجمة : بدر الرفاعي -

المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومي للترجمة - ٦٣٧ - طبعة ٢٠٠٥

## المحتويات

٣	مظهر باشا يُثني علي عصر أفندينا ولي النعم :
٤	علاقة مظهر باشا بمحمود بك حسن :
٦	عباس الأول ورفاهية الفلاح المصري :
٨	إنجازات عباس حلمي المعمارية والمناطق التي سُميت بأسمه :
١٢	السكة الحديد أنشأها عباس لأغراض سياسية :
١٤	من قتل عباس باشا ؟
١٦	سعيد باشا والمكرونة :
١٧	غلطات سعيد باشا :
١٨	دلبسيس يعرض مشروعه علي سعيد باشا :
٢١	سعيد باشا يرسل قوة من الجيش إلي المكسيك :
٢٢	وفاة سعيد باشا نبأ سعيد لإسماعيل باشا :
٢٣	عندما تولي أفندينا ولي النعم حكم مصر :
٢٦	افندينا ولي النعم وشغفه بتشييد القصور
٢٨	افتتاح قناة السويس للملاحة في عهد أفندينا ولي النعم
٢٩	أفراح الأتجال
٣١	البنشيتي.. القناوي الأزهري الجريء الذي تحدى أفندينا ولي النعم
٣٢	أفندينا ولي النعم بقلد أوروبا
٣٣	مجلس شوري النواب
٣٣	الاستعمار الاستيطاني
٣٤	رجال دولة أفندينا ولي النعم
٣٥	ذكريات بداية قروض ولي النعم
٣٨	علي مبارك ، أبو التعليم في مصر الحديثة
٤١	اعمال علي باشا مبارك في عهد أفندينا ولي النعم
٤٣	اسماعيل المفتش
٤٥	المفتش أصبح عين أفندينا وأذنيه
٤٧	نهاية المفتش
٤٩	أفندينا يرتمي في أحضان الشعب
٥١	أفندينا يستعد للرحيل
٥٢	عزل ولي النعم
٥٣	أفندينا بطل قومي ولكن بعد فوات الأوان
٥٤	مراجع ومصادر الرواية
٥٥	المحتويات